جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الإِنْصَافُ وَأَسَالِيبُه بَيْنَ قَافِيَّةِ المُفَضَّلِ النُّكْرِي وَسِينِيَّةِ العَبَّاسِ بنِ مِرْدَاس

الدكتور

علي محمود عباس موسى

أستَاذ البَلاغَة والنَّقْد المُسَاعِد بكلية الدِّراسات الإسلامِيّة والعربيّة للبنين بقنا

العدد الرابع والعشرون

للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنْصَافُ وَأَسَالِيبُهُ بَيْنَ قَافِيَةِ المُفَضَّلِ النُّكْرِيّ وَسِينِيَّةِ العَبَّاسِ بنِ مِرْدَاس

علي محمود عباس موسى

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

البريد الإلكتروني: alimussa.4119@azhar.edu.eg

الملخص

إن تَعقُّب المَعاني وتتبُّعها في مُختلف ألوان البيان العربيّ ، شعرا كان أو نثرا ، ومحاولة الوقوف على أساليبها البلاغيَّة المُختلفة مِن الأهميَّة بمكان ؛ إذْ في ذلك إنماء للدرس البلاغيّ

ومن ثم جاءت هذه الدراسة : (الإنصاف وأساليبه في قافية المفضل النكري وسينية العباس بن مرداس ــ دراسة بلاغية موازنة) محاولة للوقوف على بعض أساليب الإنصاف في البلاغة العربية ، وتبيانا لجمالياته، وإبرازا لبلاغة الشعراء في توظيف صور البيان المختلفة في تجسيد معاني الإنصاف والعدل مع الأعداء في ميدان القتال خاصة .

كما حاولت الدراسة الموازنة بين الشاعرين ، موازنة من شأنها إبراز خصوصية شعر الشاعرين : (المُفضَّل النُّكريّ ، والعباس بن مرداس) في الإنصاف الحربي ، ومحاولة تبيان مواطن الإجادة ، ومواطن القصور في المنصفتين .

كما حاولت الدراسة تبيان رتب أساليب الإنصاف المختلفة في المنصفتين ، ليتبين أيها كان أكثر وفاء بالغرض ، وأقرب إلى تحقيق مقصود الشاعر وغايته .

هذا ، وقد تنوَّعت الطُّرق التي وظّفت لتحقيق معنى الإنصاف في المنصفتين ، فكان أسلوب التعجب ، وأسلوب التفضيل ، وأسلوب الشرط ،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والأسلوب الخبري ــ وهو أكثرها شيوعا ــ الدال على التكافؤ والتعادل والتوازن بين الأصحاب والأعداء ، والتشبيه والكناية أبرز الطرق التي جسَّدت الإنصاف وأوضحها .

وقد عاونت تلك الأساليب فنون بلاغية أخرى ، لم تكن رئيسة في الإنصاف ، فضلا عن دور الألفاظ البالغ في تجسيد معاني الإنصاف والتي أحسن الشَّاعِران انتقاءها وتوظيفها ، وهو اختيار يُنبئ عن الفهم الدَّقيق لخصائص هذه الألفاظ ، ودلالات تلك التراكيب .

الكلمات المفتاحية: أساليب الإنصاف ــ معاني الإنصاف ــ قافية المفضل النكري ــ سينية العباس بن مرداس .

The fairness and methods between the preferred rhetoric of negation and the Sunni of Abbas al-Abbas bin Mirdas

Ali Mahmoud Abbas Musa

Assistant Professor, Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Qena , Arab Republic of Egypt

Email: alimussa.4119@azhar.edu.eg

Abstract

Tracking and tracking meanings in the various colors of the Arabic statement, whether poetry or prose, and trying to stand on its rhetorical methods are of different importance in a place, as this is a rhetoric development

Hence, this study came: (Al-Insaf and his methods in the rhyme of Al-Nukri Al-Fakri and Siniyat Al-Abbas bin Mardas - A Balanced Rhetorical Study) an attempt to find some methods of fairness in Arabic rhetoric, an explanation of its aesthetics, and a highlight of the rhetoric of poets in employing various manifestations in the embodiment of the meanings of fairness and justice with enemies On the battlefield in particular .

The study also attempted to balance the two poets, a balance that would highlight the peculiarity of the poets' poetry: (Al-Mufaddal al-Nokri, and Abbas bin Mardas) in warfare, and try to explain the proficiency and deficiencies in the two fair.

The study also attempted to show the ranks of the different methods of fairness in the two equities, to show which was more fulfilling the purpose, and closer to achieving the intent of the poet and his goal.

Moreover, the methods used to achieve the meaning of fairness varied in the two equities, so the marvelous style, the preference style, the condition of the condition, and the expert method - which is the most common - signify parity, parity and balance between friends and foes, and metaphor and metonymy are the most prominent ways that embody fairness.

Other methods of rhetoric assisted these methods, which were not major in fairness, as well as the role of verbal expressions in the embodiment of the meanings of fairness, which the two poets were best selected and employed, a choice that predicts an accurate understanding of the characteristics of these terms, and the indications of those structures.

Keywords : methods of fairness - the meanings of fairness - the favorite rhyme Al-Nukri - Sinniyat al-Abbas bin Mardas.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

" بدأت أشتغل بدرس البلاغة العربية ، وما البلاغة إلا البحث عن جمال القول ، وكيف ؟ وبم يكون ؟ وهذه البلاغة هي روح الأدب ، والأدب جسمها ومادتها : تعلم صنعه وتبصر بنقده "

أمين الخولي . مناهج التجديد ص ... .

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحةُ البحْث

الحمْدُ للَّهِ القائلِ فِي كِتابِه الكَريمِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (سورة المائدة : آية ٨) ، والصَّلاة والسَّلام على مَن جعل الإنصاف أمارة مِن أمارات الإيمان ، سيدنا مُحَمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ، وعلى آله وأصحابه الأبرار الأطهار ، وعلى مَن سار على دربه ، واقتفى أثره الشَّريف الطَّاهر إلى يوم الدين .

أمَّا بعد :

فإنَّ مِن أجلّ مكارم الأخلاق وأفضلها الإنصاف والعدل ولاسيَّما مع الأعداء في ساحة الحرب والقتال ، فهو دليل كرم النَّفس ونُبْلها ، وأمارة كمال خُلُق المرء وتمامه ، وقد حفظت لنا كتب أدبنا العربي شعرا ونثرا الكثير مِن النِتاج الأدبيّ الذي يُبرز العدل والإنصاف مع الأعداء في أكمل صورهما ، وأتمّ أحوالهما ، فكانت ــ بعون الله وتوفيقه ــ هذه الدِّراسة : (الإنصاف وأساليبه في قافيَّة المفضل النُّكْريّ ، وسينية العباس بن مرداس ــ دراسة بلاغية مُوازنَة) محاولةً للوقوف على بعض أساليب الإنصاف في البلاغة العربية ، وتبيانا لجمالياته ، وإبرازا مدى بلاغة الشُّعراء في توظيف صور البيان المختلفة في تجسيد معاني الإنصاف والعدل مع الأعداء في ميدان القتال خاصَّة .

ذلك لأنَّ تَعقُّب المَعاني وتتبُّعها في مُختلف ألوان البيان العربيّ ، شعرا كان أو نثرا ، ومحاولة الوقوف على أساليبها البلاغيَّة المُختلفة مِن الأهميَّة

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بمكان ؛ إذْ في ذلك إنماء للدرس البلاغيّ ، وكيف لا والشعر العربيّ خاصَّة ــ وهو ميدان هذه الدِّراسة ــ رافد مِن أخصب روافد البلاغة ، وأكثرها عطاء ؟ ! .

هذا ، وقد حفَّزني لهذا الموضوع عدَّة أمور ، مِن بينها :

أولا : بَكَارَةُ الموضوع ، وجِدَّتُهُ في بابه ، فلم تقع عين الباحث ــ فيما اطلعت ــ على دراسات بلاغية اتَّخذت مِن الحديث عن الأساليب البلاغية للإنصاف مَيدانا لها ، اللهم إلا دراسة أدبية في حوالي عشرين صفحة ، نشرها الدكتور / محمد زروق الحسن ، الأستاذ المُشارك بقسم الدِّراسات الأدبيَّة والنقديَّة ، في مجلة كلية الدَّعوة الإسلامية ، بجامعة أُم دُرْمان الإسلامية بالسُّودان ، في عام ٢٠١٢ م ، وكانت بعنوان : (موازنة بين منصفتي المفضل النكري والعباس بن مرداس السلمي) وقد جاءت دراسته الأدبية في محورين : الأول : ما أَسْمَاه مضمون القصيدتين المنصفتين وتحدث فيه عن أغراض القصيدتين الشعرية ، والآخر : تعرَّض فيه لما أسْمَاه شكل القصيدتين المنصفتين ، وتحدَّث فيه عن الوزن والقافية ، وبعض الصُّور البلاغيَّة التي وَردت .

ثانيًا : نُدرة الدِّراسات الأدبية والبلاغية التي اعتنت بدراسة شعر الإنصاف بوجه عام .

ثالثًا : حديث بعض شُيُوخي الأكارم ــ بارك الله فيهم ، ونفعنا بعلمهم ــ عن فضل مُدَارسِة هذا الباب ، وافتقار المَكْتبة العربيَّة ، ولاسيَّما البلاغيَّة ، إلى مِثل هذه الدِّراسات .

رابعًا : شُهْرة مُنْصِفتيّ المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، والعباس بن مرداس ، في التُّراث الشِّعري الجاهلي في باب الإنصاف .

وقد سارت هذه الدِّراسة وفق المنهج الاستقرائيّ التحليليّ ، والذي تمثله خطوات متتابعة ، تشكل جوهر البحث ، ومحور الدِّراسة ، على النحو الآتي :

أولًا : قراءة القصيدتين : (القافيَّة والسينيَّة) قراءة متأنية للوقوف على المعاني التي أنصف فيها الشَّاعِران أعداءهما .

ثانيًا : تقسيم المعنى الكلي ، وهو وصف الأعداء ، وشجاعتهم عند اللقاء، إلى معانٍ فرعية أخصّ منها وأدقّ ، فهذا في وصف التهيُّؤ والتحفُّز، وهذا في وصف تكافؤ الأصحاب والأعداء في الكرّ والإقدام عند المُواجهة .

ثالثًا : الوقوف على تلك الأساليب البلاغية التي وظَّفها الشَّاعِران لتحقيق معنى الإنصاف .

رابعًا : مُحاولة تحليل تلك الأساليب تحليلا يبرز طريقة الشَّاعِرين الخاصَّة في توظيف تلك الأساليب لتحقيق معاني الإنصاف ، وبيان مدى توفيق الشَّاعِرين في ذلك ، ومدى بلاغة تلك الأساليب فيما وظِّفتْ له .

خامسًا : مُحاولة الموازنة بين الشَّاعِرين ، موازنة مِن شأنها إبراز خُصُوصية شعر الشَّاعِرين : (المُفَضَّل النُّكريّ ، والعباس بن مرداس) في الإنصاف ، ومحاولة تبيان مواطن الإجادة ، ومواطن القصور في المنصفتين، ما أمكن .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

سادسًا : لم تغفل الدِّراسة الوقوف على بعض الألفاظ التي أثرت معانى الإنصاف في القصيدتين ، وتبيان أثرها ، ووجه بلاغتها ؛ إذ إنَّ المُفــردات اللغوية تمثِّل اللبنات الصغرى التي شكَّلت تلك الأساليب .

سابعًا : حاولت الدِّراسة تبيان رتب أساليب الإنصاف المختلفــة فــي منصفتي المُفَضَّل النُّكريّ ، والعباس بن مرداس ، ليتبين أيها كان أكثر وفاء بالغرض ، وأقرب إلى تحقيق مقصود الشَّاعِر وغايته .

هذا ، وقد اقتضت طبيعة البحث أنْ يجيء في أربعة مباحث ، يســبقها مقدمة وتمهيد ، ويعقبها خاتمة ، وفهرس يجمع مصادر الدِّراسة ومراجعها، وآخر يضم محتويات البحث وموضوعاته .

أمَّا المقدِّمة فيتجلَّى فيها ــ كعادة الباحثين ــ الحــديث عــن أهميــة الموضوع ، ومحفزات البحث فيه ، وخطة الموضوع ، ومنهجه .

وأمَّا التمهيد ، فكان مدخل القارئ الذي يتعرَّف مِن خلاله على فِكْــرة الموضوع ، وكان أيضًا طريق الدِّراسة لتوضيح مفردات عنوان البحث ، وقد جاء ذلك في أمور ثلاثة :

الأول : شعر الإنصَاف ، وخصائصه في الشِّعر الجَاهليّ .

الثاني : المُفَضَّل النُّكريّ ، ومُنْصِفَته : ألمْ ترَ أنَّ جيرتَنَا استقَلُّوا .

الثالث : العباس بن مرداس ، ومُنْصِفَته : لِأَسْمَاءَ رَسْمٌ أَصْبَحَ اليَوْمَ دَارِسَا .

هذا ، وقد جرى تقسيم الدِّراسة على وفق المعاني التي أنصف فيهــا الشَّاعِران أعداءهما في ميدان القتال ، وذلك على النحو الآتي :

المبحث الأول: الإنصاف وأساليبه في وصف حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى .

المبحث الثاني: الإنصاف وأساليبه في تصوير مقدرة الأعداء على القتل والرَّدع حين المواجهة .

المبحث الثالث: الإنصاف وأساليبه في تصوير إشباع السِّباع مِن جُثث القتلى.

المبحث الرابع: الإنصاف وأساليبه في تصوير شدَّة حزن النِّساء على القتلى.

وأمَّا الخاتمة ، فأوجزتْ أهمّ نتائج الدِّراسة .

وفي الختام أسأله سبحانه وتعالى أن يُحسن إليّ ، وإلَى وَالِدَيّ ، وإلَى كلّ مَنْ أَسْدَى إلىَ نُصْحا ، وأنْ يتقبل منِّي هذا العمل ، وأنْ يغفر لي زلاتي ، إنَّه وليُّ ذلك ، ومولاه .

ويرحم الله مَن جسَّد حال الباحث وصوَّره أتمّ تصوير القاضي الفاضل / عبد الرحيم البيساني ، وقد كتب إلى العماد الأصبهانيّ معتذرا عن كلام استدركه عليه قائلا : " إنِّي رأيتُ أنّه لا يكتب أحد كتابًا في يومه ، إلا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا مِن أعظم العِبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جُمْلة البشر " [(١)] .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (سورة البقرة : آية ٢٨٦) .

****

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للزبيدي ١ / ٣ ــ ط : مؤسسة التاريخ العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

التمهيد

وفيه أمور ثلاثة :

الأول : شعر الإنصاف وخصائصه في الشعر الجاهلي .

الثاني : المفضل النكري ومنصفته : ألم تر أن جيرتنا استقلوا

الثالث : العباس بن مرداس ومنصفته : لأسماء رسم أصبح اليوم دارسا .

أولًا : شِعر الإنصاف ، وخصائصه في الشِّعر الجاهليّ

الإنصاف في اللغة : يدور معنى الإنصاف في كتب اللغة حول معنى إعطاء الغير مِن النَّفس حقّه ، وعدم الجور عليه ، فهو يمثِّل العدل مع الغير في أكمل صورة ، وأنبل حالة .

ففي لسان العرب : النَّصَفُ والنَّصَفَةُ والإنْصاف : إعطاء الحق ... وأَنصف إذا أَخذ الحق وأَعطى الحق ، والنصَفة اسم الإنصاف ، وتفسيره : أَن تعطيه مِن نفسك النصَف ، أَي : تُعْطيه من الحق ، كالذي تستحق لنفسك، ويقال : انتصفت من فلان : أَخذْت حقي كَمَلاً حتَّى صرت أَنا وهو على النَّصَف سَواءً [١]

وفي المعجم الوسيط ، يُقَال : (أنصف) الشَّيء : انتصف ، وفلان عدل والشيء : نصفه ، يُقال : أنصف المَاء الإناء ، وأنصفت عمري وفلانا، عامله بالعدل ، ويُقال : أنصف فلانا مِن فلان : استوفى له حقَّه منه [٢]

والإنصاف في الاصطلاح يعني : أنْ تُعطي غيرك مِن الحق مِن نفسك مثل الذي تحب أنْ تأخذه منه ، لو كنت مكانه ، ويكون ذلك بالأقوال والأفعال، في الرِّضا والغضب ، مع مَن نُحب ، ومع مَن نَكره [٣]

---

(١) ينظر : لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ــ مادة (نصف) ــ ط : دار صادر ــ بيروت .

(٢) ينظر : المعجم الوسيط ــ إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر و محمد علي النجار ــ مادة (نصف) ط : مكتبة الشروق الدولية ــ ط : رابعة ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٤ م .

(٣) ينظر : نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ــ المؤلف : عدد من المختصين بإشراف الشيخ/صالح بن عبد الله بن حميد٣/٥٧٧ــ ط : دار الوسيلة للنشر والتوزيع ــ جدة ــ ط : رابعة .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والمُنْصِفَات تسميَة أطلقت في كُتب الأدب على " قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم فيها ، وصدقوا عنهم ، وعن أنفسهم ، فيما اصطلوه مِن حرّ اللقاء ، وفيما وصفوه مِن أحوالهم في إمخاض الإخاء ، قد سمُّوها المُنْصِفات ، ويروى أنَّ أوَّل مَن أنصف في شعره مُهَلهل بن ربيعة ، حيث قال [١] :

كَأنّا غُدْوَةً وبَنِي أبِينَا ∴ بجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحَيَا مُدِيرِ "[٢]

وأرجع المرزوقيّ تسمية تلك القَصائد بالمنصفات إلى ما " تقابل فيها من صفات الجيشين على وجه التعادُل وسَنن التصادُق " [٣]

وترجع الحفاوة بشعر الإنصاف في العصر الجاهليّ إلى ما عُرف مِن عصبية الشَّاعِر الجاهليّ الشَّديدة ، وإفراطه البالغ في الخُصُومة والعداء ، تلك التي كانت تجعله في الأعمّ الأغلب ينظر إلى أعدائه بعين حاسدة مريضة ، فهو لا يرى فيهم الخير أبدا ، بل تراه يبالغ في انتقاصهم وازدرائهم إلى الحال التي تجعل الأعداء مِن شدَّة وقع الهجاء يبكون ، يقول الجاحظ ـ

---

(١) البيت من الطويل . ينظر : ديوان مهلهل بن ربيعة ـ شرح وتقديم : طلال حرب ص ٤٢ ـ ط : الدار العالمية ـ من دون تاريخ .

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ عبد القادر بن عمر البغدادي ـ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ـ ٨ / ٣٢٧ ـ ط : مكتبة الخانجي ـ القاهرة . ط : رابعة ـ ١٤٢٠ ه ـ ٢٠٠٠ م .

ـ في قول المهلهل (وبني أبينا) أراد بهم بكر بن وائل ، وعنيزة : موضع ، وقوله (رحيا مدير) شبَّههم في هذا اليوم بالرَّحيين ؛ لأنَّهم تكافؤا فيه ، فلم يكن لبكر على تغلب ، ولا لتغلب على بكر . ينظر : شرح أدب الكاتب لابن قتيبة ـ المؤلف : موهوب بن أحمد بن الجواليقى ـ تقديم : مصطفى صادق الرافعي ـ ١ / ٩٩ ـ ط : دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ من دون تاريخ .

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ـ نشره : أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ القسم الأول ـ ١ / ٤٤٩ ـ ط : دار الجيل ـ بيروت ـ ط : أولى ـ ١٤١١ ه ـ ١٩٩١ م .

رحمه الله ــ : " ولأمر ما بكت العربُ بالدموع الغِزار من وقعِ الهجاءِ ، وهذا من أوَّل كرمها، كما بكى مخارقُ بن شِهاب ، وكما بكى عَلقمة بن عُلاثة ، وكما بكى عبد اللّه بن جُدعان من بيتٍ لخداش بن زهير ، وما زال يهجوه مِن غير أن يكون رآه ، ولو كان رآه ، ورأى جماله وبهاءَه ونُبله ، والذي يقع في النّفوس مِن تفضيله ومحبَّته ، ومِن إجلاله والرّقة عليه أمسك " (١)

ويتَّسم شعر الإنصاف بسِمات وخصائص تميّزه عن غيره ، يقول الدكتور / غازي طليمات مبرزا طرائق الشُّعراء وضرائبهم في باب الإنصاف: " .. وربما كانت المنصفات أروع ما في هذا الشِّعر ، وأحفله بمشاعر إنسانية راقية ، وأبعده عن الحقد والكراهية ، في هذا النمط من الشِّعر تخفت أصوات الفخر ، وتنسرب قصة الأخذ بالثأر في منسرب إنساني، وتضعف العصبية القبلية ، وتمازج العداوة الصداقة ، والاحتقار الإكبار، ويُصور العدو اللدود بصورة الصديق الودود، ويضع الشَّاعِر نفسه موضع خصمه، فيعبّر عمّا في نفس الخصم، فإذا الذي يحسّه الفريقان واحد، وإذا العداوة التي تلمع في الظبا والأسنة برقٌ خلّب ، يومض ثمَّ يختفي " (٢)

ومِن هنا رأينا كيف كان الرُّواة قديمًا يحتفون بشعر الإنصاف أيَّما احتفاء ، يقول الجاحظ : " وقد أدركتُ رُوَاة المَسجديين والمربديين ، ومَن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز

---

(١) الحيوان للجاحظ ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ١ / ٣٦٤ ــ ط : مصطفى البابي الحلبي ــ مصر ــ ط : ثانية ــ ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م .

(٢) تاريخ الأدب العربي ــ الشعر الجاهلي ــ قضاياه ــ أغراضه ــ أعلامه ــ فنونه ــ للدكتور : غازي طليمات ، والأستاذ عرفان الأشقر ص ١٥٠ ــ ط : دار الإرشاد ــ حمص ــ سوريا ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنَّهم كانوا لا يعدّونه مِن الرُّواة " (١)

فشِعر الإنصاف الحربيّ أحد الألوان الشِّعرية التي سُمع صَداها في العصر الجاهليّ ، في ذلك الزَّمان الذي كانت طبول الحرب تقرع سمع الجاهليّ المُوغِل في البداوة صَباح مَساء ، وليلَ نهارَ .

كَما يُعدّ شعر الإنصاف بطولة مِن بُطُولات العربيّ الجاهليّ ، ومفخرة مِن مفاخره ؛ لأنَّه شاهد صدق على غلبة العدل على هوى النفس ، وانتصار الحق على ميول النَّفس الأمارة بالسوء . والله تعالى أعلم .

****

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ــ ٤ / ٢٣ ــ ط : مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ط : سابعة ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٨ م .
المسجديون : هم الذين يلتزمون مسجد البصرة والكوفة . ينظر : هامش البيان والتبيين ١ / ٢٤٣ .
المربديون : نسبة إلى مربد البصرة ، بكسر الميم ، وهو من أشهر محالها ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . ينظر : هامش البيان والتبيين ٤ / ٢٣ .

ثانياً : (**المُفَضَّل النُّكْرِيّ ومنصِفته** : **ألمْ ترَ أنَّ جيرتَنَا استقَلُّوا**)

تحاول الدِّراسة هنا أنْ تكشِف عن نَسَب المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، وعصره الأدبي وموطنه ، وتبرز مكانة منصفته في الأدب العربي ، فنقول وبالله التوفيق .

اسمه ونسبه :

هو : المُفَضَّل بن مَعشَر بن أسْحم بن عدي بن شيبان بن سويد بن عُذرة بن منبه بن نُكرة ، شاعر جاهلي ... وقيل : إنَّ اسمه عبد الله بن جنح النُّكْرِيّ [١] وسمَّاه صاحب منتهى الطلب : عامر بن معشر بن أسحم [٢]

وذكر صاحب الأشباه والنظائر نسبه بأنَّه هو : عامر بن معشر بن أسحم بن عديّ بن شيبان بن سود ابن عُذرة بن منبّه ابن لُكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دُعمي بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار [٣]

والنُّكْرِيّ نسبة إلى قبيلته (نُكرة) بضم النُّون ، إحدى قبائل ربيعة ؛ إذ ولد عبد القيس بن أفصى : أفصى ، فولد أفصى بن عبد القيس : شَن

---

(١) ينظر : جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي ــ تحقيق : ليفي بروفنثال ص ٢٨٢ ــ ط : دار المعارف ــ مصر . ومعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ــ معجم ببليوغرافي يعرف بالشعراء ومراجع دراستهم ــ د عفيف عبد الرحمن ــ ص ٢٥٩ ــ ط : دار المناهل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٧ ه ــ ١٩٩٦ م . وموسوعة شعراء العصر الجاهلي ــ عبد عون الروضان ــ ص ٣١٠ ــ ط : دار أسامة للنشر والتوزيع ــ الأردن ــ عمان ــ ط : أولى ــ ٢٠٠١ م .

(٢) ينظر : منتهى الطلب من أشعار العرب ــ جمع محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ــ تحقيق وشرح : د / محمد نبيل طريفي ــ ٢٣٧/٨ ــ ط: دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٩٩ م .

(٣) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ــ المؤلف : الخالديان (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم) ــ تح : د السيد محمد يوسف ١ / ١٤٩. ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولُكيز وهما قبيلا عبد القيس ، فولد لكيز : وَديعة بطن ، وصُباح بطن ، ونكرة بطن ... (١)

وقال ابن دريد في معرض حديثه عن اشتقاق أسماء بني ربيعة بن نزار وقبائلهم : ومن قبائلهم : بنو نُكْرة بن لُكَيْز ، ونُكْرة : فُعلةٌ من الشَّيء المنكر والمنكور ، نَكِرتُه وأنكرته ، واشتقاق لُكَيزٍ إمَّا من تصغير لكزْتُه لكزْاً، إذا ضربتَه بيدك ، وإمَّا من قولهم : مَشَى فلانٌ حافياً فلاكَزَ الحجارةَ ؛ كأنَّها تُلاكِزه ، وإلى ذلك يرجع .. ومن شعرائهم : المُفَضَّل بن مَعْشَر ، وهو صاحبُ المُنْصِفة ، قالها في حربٍ كانت بينهم في الجاهليّة ، ومَعْشَر ، إمَّا من قولهم للجماعة : يا مَعْشَر النَّاس ، وإمَّا من قولهم : كريم المَعْشَر ، أي: كريم العِشْرة والمعاشَرة (٢)

****

هذا ، وتعدّ قافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ مِن أشهر قصائد الإنصاف الحربيّ(٣) في العصر الجاهلي ، لِما جاء فيها مِن معانٍ جليلة ، وأوصاف كريمة ، خلعها الشَّاعِر على أعدائه وخصومه ، حيث تراه في منصفته قد اعترف ــ والفضل ما شهدت به الأعداء ــ بشجاعة أعدائه وبسالتهم ، وأبرز فيها كيف كان فرسانهم في المعركة مكافئين لقومه في الضراب والطِّعان ، فهي قصيدة تجسِّد العدل والإنصاف في أكمل صوره ؛ ولذا بلغتْ شهرتها الآفاق ، ثمَّ هي في الوقت نفسه تُنبئ عن زَكاء نَفْس ، وفضل خُلُق ، وطِيب معدن .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٢٧٨

(٢) الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ٢ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ١٤١١ هـ ــ ١٩٩١ م .

(٣) ينظر: الحماسة للبحتري ــ تح : د / محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد ص١٢٢ : ١٢٣ ــ ط: هيئة أبي ظبي للثقافة والتراث ــ المجمع الثقافي ــ أبو ظبي ــ الإمارات ــ ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م .

ففي الأشباه والنظائر : ذكرت الرُّواة أنَّ مُنْصفات أشعار العرب ثلاثة أشعار ، فأوَّلها قصيدة عامر بن معشر بن أسحم بن عديّ ، وأوَّلها قوله :

أَلَمْ تَرَ أنَّ جيرتَنَا استقَلُّوا ∴ فنِيَّتُنَا ونِيَّتُهُمْ فَرِيقُ

والمنصفة الثانية لعبد الشارِق بن عبد العزيز الجُهَنيّ ، وأولها قوله :

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَينا ∴ نُحيِّيها وإنْ بَخِلَتْ عَلَينا

والمنصفة الثالثة للعبّاس بن مرداس السُّلَميّ ، وأولها قوله :

لأسماءَ رَسمٌ أصبحَ اليومَ دارِسا ∴ وأقفرَ مِنهَا رحرَحانَ فَراكِسا[1]

وفي حلية المحاضرة ما يدل على شهرة القصيدة في الإنصاف : قال ابن أبي الدنيا ، قال : حدثنا أحمد بن الحارث عن على بن عبد الله القرشي ، أنَّ معاوية قال يومًا : أيُّكم ينشدنا قصيدة أنصف فيها صاحبها ؟ فقالوا ، فأكثروا ، فلم يأتوا بشيء ، فقال : يا غلام ! هاتِ تلك الرُّقعة ، فقرأ عليهم قصيدة المُفَضَّل العبدي :

بكَلِ قرارةٍ منا ومنهم ∴ بنَانُ فتىً وجُمجُمةٌ فَليقُ
فأشبَعْنَا الضِباعَ وأشبعُوهَا ∴ فراحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ يَفُوقُ
قَتَلنَا الحارثَ الوضَّاحَ فيهِمْ ∴ كأنَّ فروع لِمَّتِهُ العُذُوقُ
وقدْ قتلُوا بهِ منَّا غُلاماً ∴ كَرِيماً لمْ تُؤشِّبهُ العُرُوقُ
فأبكينَا نساءَهُمُ وأبكَوا ∴ نساءً مَا يَسُوغُ لهُنَّ رِيقُ

وهذه القصيدة ، تُسمَّى المُنْصِفَة [2]

---

(١) ينظر بتصرف : الأشباه والنظائر ١ / ١٤٩ : ١٥٤ .

(٢) ينظر : حلية المحاضرة في صناعة الشعر لأبي علي بن المُظفر الحاتمي ــ تح : د / جعفر الكتاني ١ / ٣٣٠ ، ٣٣١ ــ ط : دار الرشيد للنشر ــ العراق ــ ١٩٧٩ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فيحسب للمفضل النُّكْرِيّ في هذه المنصفة أنَّه صوَّر " الحرب مِن بدايتها إلى نهايتها تصوير المؤرِّخ العادل المُتجرِّد مِن الهوى ، البريء من التعصُّب والحقد ، فذكر أنَّه قتل فيها مِن الفريقين سادة نجب ، أكلت الضواري مِن لحومهم حتَّى أتخمت ، وناحت عليهم نساء القبيلتين حتَّى شرقن بدموعهن ، وجفَّت حلوقهن ، ثمَّ انتهت المعركة نهايتها المفجعة ، وهي الحسرة القاتلة ، والندم الشديد على ما قطعت الحرب من وشائج في صراع أرعن ، لم يستطع المتحاربون أن يدركوا رعونته إلا في نهاية المعركة ، وحينما أدركوها ندم قوم الشَّاعِر ، وأبقَوا على البقية الباقية مِن بني لجيم أعدائهم الأصدقاء ، وأقربائهم الذين لهم عليهم حقوق ، فكان نصرهم على أضغانهم أجدر بالفخر مِن نصرهم على إخوانهم " (١)

فالنَّاظر في مُنصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ يتبيَّن له أنَّها " حافلة بالأحداث والشخصيات والأزمنة والأمكنة مما يجعلها أقرب إلى عناصر السَّرد القصصي .. وفي القصيدة تعقد الأحداث قبل انفراجها بالحَنين والقرابة والهُدنة " (٢)

****

(١) تاريخ الأدب العربي ــ الشعر الجاهلي ــ قضاياه ــ أغراضه ــ أعلامه ــ فنونه ــ للدكتور : غازي طليمات ، والأستاذ عرفان الأشقر ص ١٥٠ ــ ط : دار الإرشاد ــ حمص ــ سوريا ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .

(٢) ملامح السرد القصصي في الأصمعيات ــ دراسة وصفية تحليلية ــ د محمد زروق الحسن علي (رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية بجامعة أم درمان الإسلامية) ــ ص ١٨٦ ــ

وإليك النَّص الكامل للمُنْصِفَة ، كما رواها الأصمعي في ديوان الأصمعيات الذي حقَّقه وشرحه الدكتور / محمد نبيل طريفي في طبعة دار صادر بيروت :

ألمْ تـرَ أنَّ جيرتَنَا استقَلُّوا ∴ فنيَّتُنَا ونيتُهُمْ فَرِيقُ
فدمعِي لُؤلُؤٌ سَلِسٌ عُراهُ ∴ يَجُرُّ عَلَى المَهَاوي مَا يَلِيقُ
غدَتْ مَا دُمْتَ إذْ شحطَتْ سُلَيْمَى ∴ وأنْتَ لِذكرِهَا طَرِبٌ مَشُوقُ
فودِّعْهَا وإنْ كانَتْ أَنَاةً ∴ مُبتَّلَةً لهَا خَلْقٌ أَنِيقُ
تُلَهِّي المرءَ بالحِدْثَانِ لهواً ∴ وتَحْدِجُهُ كمَا حُدِجَ المُطِيقُ
فإنَّكَ لو رأيتَ غداةَ جِئْنَا ∴ ببطنِ أُثَالَ ضاحِيَةً نَسُوقُ
فِداءٌ خالَتي لِبَني حُيَيٍّ ∴ خُصُوصاً يومَ كُسَّ القومِ رُوقُ
هُمُ صَبَرُوا وصَبْرُهُمُ تَلِيدٌ ∴ عَلَى العِزاءِ إذْ بَلَغَ المضِيقُ
وهُمْ دفَعُوا المنيَّةَ فاستَقَلَّتْ ∴ دِراكاً بعدَ مَا كادَتْ تَحِيقُ
تلاقينَا بغينَةِ ذي طُريفٍ ∴ وبعضُهُمُ علَى بعضٍ حنِيقُ
فَجاءُوا عارِضاً بَرِداً وجئنَا ∴ كَسَيلِ العَرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ
مشَيْنَا شطرَهُمْ ومشَوْا إلْينَا ∴ وقُلنَا اليومَ ما تَقضِي الحُقُوقُ
رَمَيْنَا فِي وُجُوهِهِمُ بِرِشْقٍ ∴ تعَضُّ بهِ الحَنَاجِرُ والحُلُوقُ
كَأنَّ النَبلَ بينَهُمُ جَرادٌ ∴ تُلَقِّيهِ شآمِيَةٌ خَرِيقُ
وَبَسْلٌ إنْ تَرَى فِيهِمُ كَمِيَّاً ∴ كَبَا ليديْهِ إلَّا فيهِ فُوقُ
يُهَزْهِزُ صعدَةً جرداءَ فيهَا ∴ سِنانُ الموتِ أو قَرْنٌ مَحِيقُ
وجدْنَا السُدَّ رخراخاً ضعِيفاً ∴ وكانَ النبعُ منبِتُهُ وَثِيقُ
لقينَا الجهْمَ ثَعلَبَةَ بْنَ سَيْرٍ ∴ أضَرَّ بِمَنْ يُجَمِّعُ أوْ يَسُوقُ
لَدَى الأعلامِ مِنْ تلَعَاتِ طِفلٍ ∴ ومِنهُمْ مِنْ أضَجَّ بهِ الفُرُوقُ

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فَخُـوطٌ مِـنْ بَنِـي عمـرِو بـنِ عَـوفٍ ∴ وأَفْنَـاءُ العُمُـورِ بهَـا شَـقِيقُ
فألفينَـا الرِمـاحَ كـأنَّ ضَـرباً ∴ مَقيـلَ الهـامِ كَـلٌّ مَـا يَـذوقُ
وجاوَرْنَـا المَنُـونَ بغَـيرِ نِكـسٍ ∴ وَخَـاظِي الجَلـزِ ثَعلَبُـهُ دَمِيـقُ
كـأنَّ هزيزَنَـا يـومَ التقَيْنَـا ∴ هَزِيـزُ أبـاءَةٍ فيهَـا حَريـقُ
بكَـلِ قـرارةٍ وبِكُـلِّ رَيـعٍ ∴ بنَـانُ فتـىً وجُمجُمـةٌ فَليـقُ
وكـمْ مِـنْ سـيدٍ منَـا ومـنْهُمْ ∴ بـذِي الطَرْفـاءِ مَنطِقُـهُ شَـهيقُ
بكُـلِّ مَجالِـةٍ غـادَرْتُ خرقـاً ∴ مِـنْ الفتيـانِ مَبسِـمُهُ رَقيـقُ
فأشـبَعْنَا السِـباعَ وأشـبعُوهَا ∴ فراحَـتْ كُلُّهَـا تَئِـقٌ يَفـوقُ
تركْنَـا العُـرج عاكفَـةً علـيهِمْ ∴ وللغربـانِ مِـنْ شَـبعٍ نَغيـقُ
فأبكينَـا نسـاءَهُمُ وأبكَـوا ∴ نسـاءً مَـا يَسـوغُ لهُـنَّ رِيـقُ
يُجـاوبنَ النِيـاحَ بكُـلِّ فَجْـرٍ ∴ فقَـدْ صَحِلَتْ مِـنْ النَـوحِ الحُلُـوقُ
فَتَلنَـا الحـارثَ الوضَّـاحَ فـيهِمْ ∴ فَخَـرَّ كـأنَّ لِمَّتَـهُ العُـذُوقُ
أصـابَتْهُ رمـاحُ بنَـي حُيـيٍّ ∴ فَخَـرَّ كأنَّـهُ سـيفٌ دَلُـوقُ
وقـدْ قتلُـوا بـهِ منَّـا غُلامـاً ∴ كَرِيمـاً لمْ تُؤشِّـبهُ العُـرُوقُ
وسـائلةٍ بثعلبَـةَ بـنِ سـيرٍ ∴ فَقَـدْ أودَتْ بثعلَبَـةَ العُلُـوقُ
وافلتْنَـا ابْـنَ قُـرَّانٍ جَرِيضـا ∴ تَمُـرَّ بـهِ مُسَـاعَفَةً خَـزُوقُ
تشُـقُّ الأرضَ شَـائلَةَ الـذُنَابَا ∴ وهادِيهَـا كـأنْ جِـذْعٌ سَـحُوقُ
فَلَمَّـا اسـتيقَنُوا بالصَّـبرِ منَّـا ∴ تـذكَّرَتِ العشـائرُ والحَزِيـقُ
فأبقيْنَـا ولـوْ شِـئنَا تركْنَـا ∴ لُجَيمـاً لاتقُـودُ ولا تَسُـوقُ
وأنعمْنَـا وابْأَسْـنَا علـيهِمْ ∴ لَنَـا في كُـلِّ أبيـاتٍ طَلِيـقُ (١)

* * * * * * * *

(١) ينظر : ديوان الأصمعيات ــ اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب ــ تحقيق وشرح : د : محمد نبيل طريفي ــ ص ٢٢٠ : ٢٢٨ ــ ط : دار صادر بيروت ــ ط : ثانية ــ ٢٠٠٥ م .

هذا ، وقد اختار المُفَضَّل النُّكْرِيّ لمنصفته بحر الوافر ، وهذا البحر عند العروضيين من جنس الكامل ، وأخوه في دائرته الثانية ، ووزنه عندهم في صيغته التامة :

مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُن مُفَاعَلَتُن ∴ مُفَاعَلَتُن مُفَاعَلَتُن مُفَاعَلَتُن

وهذه الصيغة خيالية لم يستعملها شاعر ، والعروضيون مولعون بالصيغ الخيالية ، وقد احتالوا على وزنهم هذا المفتعل فأدخلوا عليه علة اسمها القطف : (وهي إسقاط آخر سبب خفيف وإسكان ما قبله) في الضرب وفي العروض ، فتحصلوا على الوزن :

مُفَاعَلَتُن مُفَاعَلَتُن فَعُولُن ∴ مُفَاعَلَتُن مُفَاعَلَتُن فَعُولُن

وهو الوزن المستعمل في الوافر [١]

وحقيقة الأمر أنَّ الوافر بحر مسرع النغمات متلاحقها مع وقفة قوية سرعان ما يتبعها إسراع وتلاحق ، وهذا يتطلَّب مِن الشَّاعِر أن يأتي بمعانيه دُفَعا دفعا كأنَّما يخرجها من مضَخة .. ولهذا فإنَّك أكثر ما تجد الوافر في نظم الشعراء ذا أساليب تغلب عليها الخطابة .. وأحسن ما يصلح هذا البحر في الاستعطاف ، والبكائيات ، وإظهار الغضب في معرض الهجاء والفخر ، والتفخيم في معرض المدح [٢]

فشعر الإنصاف بوجه عامّ ، وقافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ بوجه خاصّ ، جديران باهتمام المُشتغلين بالأدب وعلومه ، ففيه ما يمنح العقل والقلب مرادهما وغايتهما المنشودة . والله تعالى أعلم .

****

(١) ينظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ــ عبد الله الطيب ١ / ٤٠٣ ، ٤٠٤ ــ ط : ثالثة ــ الكويت ــ ١٤٠٩ ه ــ ١٩٨٩ م .

(٢) ينظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ / ٤٠٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثالثا : العباس بن مِرْدَاس السُلمي ، ومنصِفته : لِأَسْمَاءَ رَسْمٌ أَصْبَحَ اليَوْمَ دَارِسَا

تحاول الدراسة ــ بعون الله وتوفيقه ــ هنا أن تكشف عن نسب العباس بن مرداس ، وشيء يسير عن حياته ، وتبرز مكانة منصفته وشهرتها في الأدب العربي ، كما اشتملت الدراسة هنا على ذكر النص الكامل للمنصفة ، وقد لزم عن ذلك الحديث عن البحر الشعري الذي سكب في قالبه الشَّاعِر معانيه وأغراضه .

اسمه ونسبه وحياته :

هو : العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن حيي بن الحارث بن بهثة بن سليم السُلمي ، يكنى أبا الفضل ، وقيل : أبا الهيثم [١]

وذكر المرزباني نسبه ، فقال : هو العباس بن مرداس بن أبي عامر بن رفاعة بن عبد بن عنبس بن رفاعة بن الحارث بن بُهثَة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خَصْفَة بن قيس بن عَيلان بن مُضر [٢]

وهو ــ رضي الله عنه ــ من مضر ، مِن سادات قومه، أمُّه الخَنساء الشَّاعِرة[٣]، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وكان مِن المُؤلَّفة قلوبهم، وكان بدويا قحا، لم يسكن مكة ولاالمدينة، وإذا حضر الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث بعده أنْ يعود إلى منازل قومه .

---

(١) ينظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ــ تح : علي محمد البيجاوي ٢ / ٨١٧ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .

(٢) ينظر : معجم الشعراء للمَرْزُباني ــ تح : د / فاروق سليم ص ١٣٤ ، ١٣٥ ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٥ م .

(٣) روى أبو عبيدة في الأغاني لأبي الفرج قائلا : كان العباس وسراقة وحزن وعمرو بنو مرداس كلهم من الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وكلهم كان شاعراً ، وعباس أشعرهم ، وأشهرهم وأفرسهم وأسودهم ، ومات في الإسلام . ينظر : الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ــ تحقيق : د / إحسان عباس ود / إبراهيم السعافين و بكر عباس ١٤ / ٢٠٣ ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ٢٠٠٢ م .

وكان مِمَّن ذمَّ الخمر ، وحرمها في الجاهلية ، وقد كانت وفاته في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٨ ه تقريبا ــ ٦٣٩ م [١]

وكان العباس بن مرداس من المؤلفة قلوبهم ، ومِمَّن حسن إسلامه منهم ، ولمَّا أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم مِن سَبي حنين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة مَائة من الإبل ونقص طائفة من المائة منهم عباس بن مرداس جعل عباس بن مرداس يقول إذا لم يبلغ به من العطاء ما بلغ بالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن :

أتجْعَلُ نَهْبِي ونَهبَ العَبِيـ ∴ ـدِ بين عُيَيْنَةَ والأقْرع
فَمَا كَانَ حِصْنٌ ولا حَابس ∴ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ في مَجْمَع
ومَا كُنْتُ دُون امرِئٍ منهُمَا ∴ ومَن تَضَعِ اليَومَ لا يُرْفَعِ

إلى آخر ما قال .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا فاقطعوا عني لسانه ، فأعطوه حتى رضي ، وكان شاعراً محسناً مشهوراً بذلك [٢] ، وروي أن عبد الملك بن مروان قال يوماً وقد ذكروا الشعراء في الشجاعة فقال : أشجع الناس في الشعر عباس بن مرداس ، حيث يقول :

---

(١) ينظر : الأعلام ــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي ٣ / ٢٦٧ ــ ط : دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة : الخامسة عشرة ــ ٢٠٠٢ م .

(٢) لعلَّ ابن عبد البَرّ في قوله : (وكان شاعرا محسنا مشهورا بذلك) يشير إلى واقعة هوازن حين قدمت معلنة إسلامها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكَانَ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ سَبْيِ هَوَازِنَ سِتّةُ آلَافٍ مِنْ الذّرَارِيّ وَالنّسَاءِ ، وَمِنْ الْإِبِلِ وَالشّاءِ مَا لَا يُدْرَى مَا عِدّتُهُ ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن ترد لهم أموالهم ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ أَمّا أَنَا وَبَنُو تميم فَلَا . وَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ أَمّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا ، وَقَالَ عَبّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ أَمّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا ، فَقَالَتْ بَنُو سُلَيْمٍ : بَلَى ، مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . قَالَ يَقُولُ عَبّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ لِبَنِي سُلَيْمٍ وَهَتَمُونِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَمّا مَنْ تَمَسّكَ مِنْكُمْ بِحَقّهِ مِنْ هَذَا السّبْيِ فَلَهُ بِكُلّ إنْسَانٍ سِتّ فَرَائِضَ مِنْ أَوّلِ سَبْيٍ أُصِيبُهُ فَرُدّوا إلَى النّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ . ينظر : الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للإمام أبي القاسم عبد الرحمن السهيلي ــ علق عليه ووضع حواشيه : مجدي بن منصور بن سيد الشوري ٤ / ٢٦٤ ، ٢٦٥ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أقاتـــل في الكتيبـــة لا أبـــالي ∴ أحتفـي كـان فيهـا أم سـواها (١)

وإذا كان العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ مِن أشجع النَّاس في الشعر، فلا عجب أنْ يكون أيضًا مِن السَّابقين إلى إنصاف أعدائه، ووصـــف شجاعتهم وفروسيتهم، ورصد مكافأتهم لمن يقاتلونهم، ولو كانوا أصحابه .

يقول دغفل النسابة : قدمت على معاوية ، فقال : يا دغفل ! أخبرنـــي عن أنصف العرب في أشعارها ؟ قال : قلتُ : الذي يقول وهو يقصد العباس بن مرداس :

فلَـمْ أرَمثـلَ الحـيِّ حيّـاً مُصَـبِّحاً ∴ ولا مِثلَنـــا لَمَّـــا التقينَـــا فَوارِســـا
أكـــرَّ وأحمَـــى للحقيقَـــةِ مِـــنهُمُ ∴ وأضـــرَبَ منَّـــا بالسُـــيُوفِ القوانِســـا
إذَا مَـــا شـــدَدْنَا شـــدَّةً نصَـــبُوا لهَـــا ∴ صُـــدُورَ المَـــذَاكِي والرِمـــاحَ المَداعِسَـــا
نُطَـــاعِنُ عَـــنْ أحســـابِنَا برِمَاحِنَـــا ∴ ونضرِبُهُمْ ضَرْبَ المُذِيدِ الخَوامِسا (٢)

فسينية العباس بن مرداس لها شهرة واسعة في الأدب العربي في باب الإنصاف ، ولها مناسبة رواها الأدباء في كتبهم ، قال أبو عبيدة : غزت بنو سليم ورئيسهم عباس بن مرداس مرادا ، فجمع لهم عمرو بن معد يكرب ، فالتقوا بتثليث من أرض اليمن ، بعد تسع وعشرين ليلة ، فـــاقتتلوا قتـــالاً شديدًا ، فقتل مِن كبار مراد ستة ، وقتل من بني ســـليم رجـــلان ، وصـــبر الفريقان حتَّى كره كل واحد منهما صاحبه ، فقال عباس بن مرداس قصيدته التي على السِّين ، وهي إحدى المنصفات (٣)

****

(١) ينظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٢ / ٨١٨
(٢) ينظر : حلية المحاضرة ١ / ٣٣١ .
(٣) خزانة الأدب ٨ / ٣٢٢ .

هذا ، وإليك النَّص الكامل للمُنْصِفَة كما ذُكرت في ديوان العباس بن مرداس الذي جمعه الدكتور / يحيى الجبوري ، وطبعته مؤسسة الرِّسالة ببيروت .

لأسماءَ رَسمٌ أصبحَ اليومَ دارِسا ∴ وأقفرَ منهَا رحرَحانَ فَراكِسا
فَجَنْبَي عَسيبٍ لا أرَى غيرَ ماثلٍ ∴ خلاءً منَ الآثارِ إلَّا الرَوامِسَا
لَيَالِي سَلمَى لا أرَى مِثلَ دَلِّهَا ∴ دَلالاً وَأُنسًا يُهبِطُ العُصمَ آنِسا
وأحسنَ عَهداً للمُلمِ ببيتِها ∴ ولا مَجلساً فيهِ لِمَنْ كانَ جالِسا
تضوَّعَ منهَا المِسكُ حتَّى كأنَّما ∴ تُرجِّلُ بالرَيْحَانِ رَطباً ويَابِساً
فدَعْها ولكِنْ قدْ أتَاهَا مُقادُنَا ∴ لأعدائِنَا نُزجِي الثِقالَ الكَوادِسا
بجَمْعٍ يريدُ ابنَىْ صحارٍ كلَيهِمَا ∴ وآلَ زُبيدٍ مُخطِئاً ومُلامِساً
على قُلُصٍ نَعلُو بِهَا كُلَّ سَبْسَبٍ ∴ تَخالُ بِهِ الحرباءَ أشمَطَ جالِسا
سَمَوْنا لَهُمْ سَبْعاً وعشرينَ ليلةً ∴ نَجُوبُ من الأعراضِ قَفْراً بَسابِسا
فبتنَا قُعُوداً في الحديدِ وأصبحُوا ∴ عَلَى الرُكباتِ يجْرُدُونَ الأيابِسا
فلَمْ أرَ مثلَ الحيِّ حيّاً مُصَبِّحاً ∴ ولا مثلَنا لَمَّا التقينَا فَوارِسا
أكرَّ وأحمَى للحقيقَةِ مِنهُمُ ∴ وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا
إذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نصَبُوا لهَا ∴ صُدُورَ المَذَاكِي والرِماحَ المَداعِسَا
إذَا الخيلُ جالَتْ عن صريعٍ نُكرُّهَا ∴ عليهِمْ فمَا يَرْجِعنَ إلا عَوابِسا
نُطَاعِنُ عَنْ أحسابِنَا برِمَاحِنَا ∴ ونضرِبُهُمْ ضَرْبَ المُذِيدِ الخَوامِسا
وكنْتُ أمامَ القومِ أوَّلَ ضاربٍ ∴ وطاعَنْتُ إذْ كانَ الطعانُ تَخالُسا
فكانَ شُهُودِي مَعبدٌ ومُخَارِقٌ ∴ وبشرٌ ومَا استشْهَدَتُ إلا الأكائِسا
مَعي ابنَا صريمٍ دارعانِ كلاهُمَا ∴ وعُروةُ لولاهُمْ لقيتُ الدَهَارِسا
ومَارَسَ زيدٌ ثمّ أقصَرَ مُهرُهُ ∴ وحُقَّ لَهُ في مِثلِهَا أنْ يُمارِسا

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقُــرَّةُ يحمــيهِمْ إذا مَــا تبــدَّدُوا ∴ ويَطعَــنُهُمْ شَــزراً فأَبْرحْــتَ فَارِســا
ولــوْ مــاتَ منهُمْ من جَرَحْنَــا لأصبحَتْ ∴ ضــباعٌ بأكنــافِ الأراكِ عَرَائســا
وَلَكــنَّهُمْ في الفارســيِّ فــلا يُــرَى ∴ مِــنَ القــومِ إلا في المُضَــاعَفِ لابِســا
فَــإنْ يقتُلُــوا منَّــا كريمــاً فإنَّنَــا ∴ أبأنَــا بــهِ قَــتلاً يُــذِلُّ المَعَاطِســا
قتَلْنَــا بــهِ في مُلتَقــى الخيــلِ خَمْسةً ∴ وقَاتِلَــهُ زدنَــا مــعَ الليــلِ سادِســا
وكُنَّــا إذَا مَــا الحــربُ شَّــبتْ نَشُــبُّهَا ∴ ونَضــرِبُ فيهَــا الأبلَــخَ المُتَقَاعِســا
فأُبنَــا وأَبْقَــى طَعْنُنَــا مِــنْ رماحِنــا ∴ مَطــارِدَ خطِّــيٍّ وحُمــراً مَداعِســا
وجُــرداً كــأنَّ الأُســدَ فــوقَ مُتُونِهــا ∴ مِنَ القَومِ مرءُوساً وآخَرَ رَائِسا (١)

******

هذا ، وقد وضع العباس بن مرداس منصفته في قالب بحر الطويــل ، ووزنه العروضي :

فعــولن مفــاعيلن فعــولن مفــاعيلن ∴ فعــولن مفــاعيلن فعــولن مفــاعيلن

فهو " البحر المعتدل حقا ، ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به ، وتجد دندنته مع الكلام المصوغ فيها بمنزلة الإطار الجميل من الصورة ، يزينها ولا يشغل الناظرين عن حسنها شيئا ، والطويــل فــي هذه الناحية يخالف سائر بحور الشعر " (٢)

ويُحسب للعباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ اختيار بحر الطويل ؛ لأنه الأقرب إلى مضمون المنصفة التي تتمثل فيها عناصر الحكاية والسَّــرد القصصيّ ، يقول عبد الله الطيب : " ... ولأمر ما فضل الشُّــعراء الأولــون

(١) ينظر : ديوان العباس بن مرداس السلمي ــ جمعه وحققه : د يحيى الجبوري ص ٩٠ : ٩٥ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩١ م .
(٢) ينظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤

بحر الطويل على غيره في باب القصص المُتصل بماضيهم وأخبارهم وأساطيرهم وملاحم قبائلهم في الأزمان السَّالفة ، فإنَّ حظَّه مِن ذلك هو الأوفر بالنسبة إلى غيره مِن البحور ، ومنحى الشُّعراء فيه يناسب معاني التغني بجلال الماضي وعنصر القصص ، والنعت فيه مِن الطراز الذي يدعو السَّامع لأنْ يصغي ويتفهَّم قبل أنْ يهتزّ ويرقص " [١]

ثمَّ إنَّ العباس بن مرداس قد استخدم حرف (السين) بعد إشباع فتحة السين لتصير ألفا ، بما تمثله السين المفتوحة الممتدة من صليل السيوف بحيث توحى السين في القافية مع السينات الأخرى في حشو الأبيات عندما تصل الأذن بما توحى به الحرب عندما تصل العقل ، إنَّك ترى وتسمع أنَّ السين في أسماء ، وفى رسم ودارسا وراكسا لا تشكل صوتاً ولكنها تصنع فعلاً وتقيم معركة ، كأنَّ العباس يمارس بأصواته شعائر القتال ويدق بقرعاته طبول الحرب ، لقد تنادت الأصوات تنادى الأبطال ، وتقارعت الحركات تقارع السيوف :

سَمَوْنَا لَهُمْ سَبْعاً وعشرينَ ليلةً ∴ نَجُوبُ من الأعراضِ قَفْراً بَسابِسا

إن في الأصوات لطبعاً ، وإن لها لروحاً ، تتداعى فتتآلف وتتنادى فتتعارف، السين في سمونا ، تسعاً ، بسابسا ، وتدعو السين شبيهتها الصوتية الشين في (عشرين) وربما دعت لاستكمال مشهد الحرب حروف المبارزة والطعان معاً الشين والصاد والزاى :

إذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نَصَبُوا لهَا ∴ صُدُورَ المَذَاكِي والرِماحَ المَداعِسَا

لقد شكَّلت الأصوات إيقاعاً نغمياً يرسم لوحة صوتية للمشهد القتالى فى قول العباس :

وكُنَّا إذَا مَا الحربُ شَّبتْ نَشُبُّهَا ∴ ونَضرِبُ فيهَا الأبلَخَ المُتَقَاعِسا

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ / ٤٥٠

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يسمع حرف الشين مع المشيش ، فهو يذكر بمدية ساخنة لحظة إلقائها فى ماء بارد ، فإذا استمعت إلى : (الأبلخ) استمعت إلى خروج شخير ذبيح تصنعه الخاء ، ثمَّ تكمل (المتقاعسا) بقافها وعينها وسينها كسره وتهشمه [١] .

هذا ، ويبدو لي أنَّ العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ كان في الصدر الأول من حياته مقداما جسورا ، يقدم الحرب على السلم ، غير عابئ بما للحرب من شرور ، لكنَّك في الصدر الآخر من حياته تراه نادما يتمنَّى طريق السلم على طريق الحرب . اسمع إليه وهو يشكو ابن عمه خُفاف ابن ندبة السلمي ، عند قوله [٢] :

أَلَم تَرَ أَنّي كَرِهتُ الحُروبَ ∴ وَأَنّي نَدِمتُ عَلى ما مَضى
نَدامَةَ زارٍ عَلى نَفسِهِ ∴ لِتِلكَ الّتي عارُها يُتَّقى (٣)
وَأَيقَنتُ أَنّي لِما جِئتُهُ ∴ مِنَ الأَمرِ لابِسُ ثَوبَي خَزى
حَياءً وَمِثلي حَقيقٌ بِهِ ∴ وَلَم يَلبَسِ القَومُ مِثلَ الحَيا
وَكانَت سُلَيمٌ إِذا قَدَّمَت ∴ فَتىً لِلحَوادِثِ كُنتُ الفَتى
وَكُنتُ أُفيءُ عَلَيها النِهابَ ∴ وَأَنكي عِداها وَأَحمي الحِمى
فَلَم أوقِدِ الحَربَ حَتّى رَمى ∴ خُفافٌ بِأَسهُمِهِ مَن رَمى
فَأَلهَبَ حَرباً بِأَصبارِها فَلَم ∴ أَكُ فيها ضَعيفَ القُوى
فَإِن تَعطِفِ القَومَ أَحلامُهُمْ ∴ وَيَرجِعَ مِن وُدِّهِم ما نَأى
فَلَستُ فَقيراً إِلى حَربِهِم ∴ وَما بِيَ عَن سَلمِهِم مِن غِنى

****

(١) ينظر : شعرية التكرار من الأصل الشعائري إلى التأصيل الفنى ــ دكتور عبد الفتاح محمد العقيلي ــ كلية الآداب ــ جامعة المنيا . ٢٠٠٢ م ــ البحث منشور على موقع الدكتور عبد الفتاح العقيلي: http://dr-alaqeely.com/contact.html

(٢) ديوان العباس بن مرداس ص ٣٥ ، ٣٦

(٣) زار : عاتب وساخط . ينظر : هامش الديوان ص ٣٦ .

المبحث الأول : الإنصاف وأساليبه في وصف حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى .

تُعدُّ الحرب بما فيها مِن مشاهد كثيرة وقصص متنوعة بيئة خصبة ينمو فيها الشعر ويزدهر ، فالحرب بلا شك تفجر الطاقات الشعرية ، وتفتق تلك الملكات عند الشعراء في كل عصر ومصر ؛ وغزارته قديما في نِتاج الشُّعراء شاهد صدق على ذلك ، يقول بروكلمان : " كانت في بعض الأحيان تستأثر بكل تفكير البدو ، ولذلك لعبت دورا مِن أهم الأدوار في أشعارهم ، ولم يكن عرضا أنْ سُمِّيت أقدم مختارات الشعر العربي بالحماسة ، نظرا إلى أول أبوابها وأغزرها مادة ، وهو باب التعبير عن ضروب الشجاعة المختلفة ، وكان العرب يفرغون حمية الشجاعة وثوراتها في أبيات من الشعر قبل القتال وفي أثناء مراحله المحتدمة ، كسائر الأجيال المساوية لهم في مرتبة الحضارة " (١)

فشاعر الحرب يتناول جملة من الأغراض الشعرية ، فهو يصف ، ويمدح ، ويفخر ، ويرثي ، ويهجو ، ويتوعد ، وينذر .

ذكر ابن سلام ، وهو يتحدَّث عن شعراء الطائف : " وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنَّما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس الخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنَّه لم يكن بينهم نائرة ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان"(٢)

هذا، ووصف الفرسان المقاتلين ووصف شجاعتهم وبطولاتهم ووصف الأحداث التي تجري معهم في تلك المعارك من أهم ما يشتمل عليه شعر الحرب.

---

(١) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ــ نقله إلى العربية : د / عبد الحليم النجار ــ ١ / ٤٩ ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : خامسة ــ من دون تاريخ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلام الجمحي ــ شرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ــ ١ / ٢٥٩ ــ ط : دار المدني بجدة .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولَمَّا كان الشَّاعِر لسان القبيلة والمدافع عن تاريخها وأمجادها ، تجده في غالب الأحيان ينتصر لها ويدافع عنها ، ويهاجم خصومها ، ويقبحهم ، وينتقص منهم ، ويزدريهم ، ويرميهم بأخس الأوصاف ، وفي بعض الأحيان يحاول أن يقف موقف المنصف العادل من خصومه وأعدائه ، فيذكر بعضا من شجاعة فرسانهم ، ويصور حينئذ بالغ قوتهم في التصدي والدفاع عن قبيلتهم وحصونهم ، فكلّ طريق مِن هذه الطُّرق له خصوصيته التي تناسبه ، ابتداء باللفظة ، وانتهاء بالأساليب والتراكيب ، فضلا عن المعاني .

فمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ لكلّ صاحب بيان عناصر وأساليب بلاغية يوظِّفها لتحقيق معانيه التي يرمي إليها ، هذه العناصر تنسجم أتمَّ انسجام مع ما يتَّفق مع ذائقته ، وما وهبه الله مِن ملكات بيانية للتعبير عما في نفسه .

هذا ، ولكل معنى عناصر وأساليب خاصة تناسبه ، فطرائق شعراء المنصفات تختلف مثلا عن طرائق غيرهم من الشعراء الذين ينتصرون في قصائدهم لأنفسهم وهواهم فحسب ، ولا يكون للعدل مكان في عقولهم وقلوبهم ، تزييفا للحق ، وتماشيا مع النفس وهواها ، وتغليبا للنزعة القبلية التي كانت سائدة في عصره .

إنَّ المغالاة في التعصُّب جعلت العربي الجاهلي ــ كما يقول الدكتور / فاروق سليم ــ : " يعتقد أنّه وقومه خير الناس ؛ فكانت الحروب الطاحنة التي مزَّقت أوصال الجماعات ، وحدثت المظالم التي قطعت الأواصر ، وتكوَّنت مفاهيم خاطئة ترى أنَّ السلوك الإنساني إرث ثابت ينتقل مِن الآباء إلى الأبناء ، وأنَّ الأبناء لا يستطيعون تجاوز دوائر السُّلوك التي عاش فيها آباؤهم .

إنَّ القيم الناتجة عن الإيغال في التعصُّب تضخّم الذات والجماعة الأبوية الصريحتين ، إلى درجة عدم الاقتدار على التوافق مع الواقع المعاش، فتظهر بذلك العدوانية ، وينتاب القلق النفوس ، وفي مقابل ذلك وجدنا قيم الانفتاح والتوحّد ، حيث التناصر والتكافل بعيداً عن الظلم ، وحيث مكارم الأخلاق القابلة للانتقال من يد إلى أخرى بالإرث والعمل معاً ، أو بالعمل وحده أيضاً .

لقد أكسبت قيم الانفتاح والتوحد نفوس الصرحاء توازناً تجلّى في الثقة بالنفس وبالرغبة في التصالح والعيش المشترك مع الآخرين ، وفي بناء الأمجاد (مكارم الأخلاق) المشتركة " [١] وهذا يعني أنَّ الأمرين : (التعصب والإنصاف) قد وُجدا جنبا إلى جنب في تلك البيئة البدوية ، فكان منهم المتعصب الذي لا يرى غير نفسه ، وكان منهم المُتجرِّد صادق النفس الذي يضع نفسه موضع خصمه ، فلا يظلم ولا يحيف .

ويُفسِّر الدكتور / فاروق سليم في خاتمة كتابه : سر تعصب أو انتماء العرب الحاد ، بأن " انتماءات الجاهليين تدلّ على وجود أمَّة في طور التكوين ، فقد امتلك العرب لغة خاصَّة ، وأرضاً خاصة ، وتاريخاً مشتركاً ، وكانوا بانتظار المصير المشترك ، وهو الوحدة ، وهذا ما تحقَّق بظهور الإسلام " [٢]

****

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي ــ د فاروق أحمد سليم ص ٧٢ ، ٧٣ ــ ط : منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ ١٩٩٨ م .

(٢) الانتماء في الشعر الجاهلي ــ د فاروق أحمد سليم ص ٤٧٧ ــ ط : منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ ١٩٩٨ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أول ما يُحكى في أدبنا العربي في وصف الحروب والمعارك بين القبائل وصف هيئة كلا الفريقين عند قرب التلاقي قبل استعار الحرب بينهما ؛ لأنَّ تحفُّز العدو وتأهُّبه وتحمُّسه للقتال يُنبئ عن فرط قوته وبالغ شجاعته .

فقد حكى المُفَضَّل النُّكْرِيّ في منصفته حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى ، مبينا مكافأة الأعداء : (بني لجيم [١]) لقومه : (بني لكيز [٢]) في التهيؤ والتحفز للقتال ، وقد استلزم وصف حال الأعداء أن تكون الصورة التشبيهية حاضرة ليتمكَّن الشَّاعِر مِن تِبيان حالهم أتمّ بيان ، ولعلَّ التشبيه مِن بين ألوان البيان هو الأنسب هنا لتحقيق الإنصاف الذي يبتغيه ؛ إذ مِن خلاله يتمكَّن الشَّاعِر مِن وصف حال الموصوف في صورة أكثر وضوحا وتبيانا ، يرحم الله الإمام عبد القاهر القائل : " وهل تشكُّ في أنَّه يعمل عمل السِّحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعاني الممثلة

---

(١) لجيم : قبيلة ، وهو لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل . ينظر : ديوان الأصمعيات اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب ــ الأصمعية رقم ٦٩ ص ٢٣٥ تحقيق وشرح : أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثالثة .

(٢) لكيز : حي من عبد القيس . ينظر : العين مرتبا على حروف المعجم للخليل بن أحمد الفراهيدي ــ (لكز) ــ تح : د / عبد الحميد هنداوي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ ه ــ ٢٠٠٣ م .

ولكيز ــ بضم اللام وفتح الكاف وآخره زاى معجمة ــ : أبو قبيلة ، وهو لكيز بن أفصى ــ بالفاء والصاد المهملة والألف ــ ابن عبد القيس بن أفصى بن دُعمى ــ بضم الدال وسكون المهملة وكسر الميم وتشديد الياء ــ ابن جديلة ــ بالجيم ــ ابن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وكان لكيز عاقا لامه ليلى ، وكانت تحبه ، وكان شقيقه شن بارا بها ، فحملها شن ذات يوم فجعلت تقول : فديت لكيزا ، فرمى بها شن من بعيرها ، وكانت عجوزا كبيرة ، فماتت ، فقال شن : دونك لكيز جعرات أمك ــ الجعرات : ما يبس من العذرة في الدبر ، وقال : يحمل شن ويُفدى لكيز ، فذهبت مثلا ، فولد لكيز وديعة صار في أولاد كل منهم بطون . ينظر : شرح شافية ابن الحاجب بتصرف للشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي ــ تح : محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ٤ / ٢١٠ ، ٢١١ ــ ط : المكتبة العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٢ ه ــ ١٩٨٢ م .

بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس، ويريك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويُريك التئام عين الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنَّار مجتمعين " ؟ (١)

****

يقول المُفَضَّل النُّكْرِيّ مُصوّرا حال أعدائه ، وهو ينقل لك اللحظات الأولى في المعركة ، عند قوله في قافيَّته ، ابتداء مِن البيت السَّادس :

فإنَّكَ لو رأيتَ غداةَ جِئْنَا ∴ ببطنِ أُثَالَ ضاحِيَةً نَسُوقُ(٢)
فِداءٌ خالَتي لِبَني حُيَيٍّ ∴ خُصُوصاً يومَ كُسُّ القومِ رُوقُ(٣)
هُمُ صَبَرُوا وصَبْرُهُمُ تَلِيدٌ ∴ عَلَى العزاءِ إذْ بَلَغَ المضِيقُ
وهُمْ دفَعُوا المنيَّةَ فاستَقَلَّتْ ∴ دِراكاً بعدَ ما كادَتْ تَحِيقُ
تلاقينَا بغينَةِ ذي طُريفٍ ∴ وبعضُهُمُ علَى بعضٍ حنِيقُ(٤)
فَجاءُوا عارِضاً بَرِداً وجِئْنَا ∴ كَسَيلِ العرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ(٥)

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ص ١٣٢ ــ ط : دار المدني بجدة ــ من دون تاريخ .

(٢) أثال : اسم موضع .

(٣) الكَسَس: صِغَر الأسنان ولصوقها بسنُوخها . قال الشَّاعِر :

فِداءٌ خالَتي لِبَني حُيَيٍّ ∴ خُصُوصاً يومَ كُسُّ القومِ رُوقُ

أي يَكْشِرون عن أسنانهم من شدّة الحرب . ويستحبّ الأكَسُّ ، وهو الصغير الأسنان . والرُّوق: الطوال الأسنان . ينظر : جمهرة اللغة لابن دريد ــ علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين ــ مادة (كسس) ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .

(٤) غِينهُ : بالكسر ثم السكون ثم نون . قال أبو العَمَيْثل : الغينة الأشجار الملتفة في الجبال وفي السهول بلا ماءٍ فإذا كانت بماء فهي غيضة ، والغينة بالكسر : الأرض الشجراء عن أبي عبيدة . ينظر : معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٢٣/٤ ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ١٣٩٧ه ــ ١٩٧٧م .

(٥) العارض : السحاب .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مشَـــيْنَا شـــطرَهُمْ ومشـــوْا إلْينـــا ∴ وقُلنَـا اليـومَ مـا تَقضِـي الحُقُـوقُ(١)
كـــأنَّ هزيزَنـــا يـــومَ التقَيْنَـــا ∴ هَزِيـــزُ أبـــاءَةٍ فيهَـــا حَريـــقُ(٢)

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فقد حكى في سينيته حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى مُتكئا على أسلوبي التعجب والتفضيل ، وقد وفِّق أيَّما توفيق في إنصاف أعدائه ، حيث أبرز أسلوبا التعجب والتفضـيل بالغ إعجابه بشجاعة القوم وبسالتهم ، وأضفيا على المعاني التي حكاها لونا مِن المبالغة .

اسمع إليه ، وهو يقول ابتداء من البيت السادس مِن سينيته :

فـدَعْها ولكِـنْ قـدْ أتَاهَـا مُقادُنَـا ∴ لأعـدائِنَا نُزجِـي الثِقـالَ الكَوادِسـا
بجَمْـعٍ يريـدُ ابنَـىْ صـحارٍ كلَيهمَـا ∴ وآلَ زُبيـــدٍ مُخطِئـــاً ومُلامِســـاً
علـى قُلُـصٍ نَعلُـوبهَـا كُـلَّ سَبْسَـبٍ ∴ تَخـالُ بِـهِ الحربـاءَ أشمَـطَ جالِسـا
سمَوْنـا لَهُـمْ سَـبْعاً وعشـرينَ ليلـةً ∴ نَجُـوبُ من الأعـراضِ قَفْراً بَسابِسـا
فبتنَـا قُعُـوداً في الحديـدِ وأصبحُوا ∴ عَلَـى الرُكبـاتِ يجْـرُدُونَ الأيابِسـا
فلَـمْ أرَ مثْـلَ الحـيِّ حيّـاً مُصَـبِّحاً ∴ ولا مِثلَنـا لَمَّـا التقينَـا فَوارِسـا
أكـــرَّ وأحمَـــى للحقيقَـــةِ مِـــنهُمُ ∴ وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا (٣)

---

(١) ينظر : ديوان الأصمعيات ــ اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب ــ تحقيق وشرح : د : محمـد نبيل طريفي ــ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ ــ ط : دار صادر بيروت ــ ط : ثانية ــ ٢٠٠٥ م .

(٢) الهز: تحريك الشيء .. واهْتَزَّ النبات تَحَرَّك وطال ، وهَزَّتْه الريح والـرِّيُّ : حَرَّكـاه وأَطـالاه ، واهتَزَّت الأَرضُ : تحركت وأَنبتت .. والهزة بالكسر : النشاط والارتياح وصوت غليان القدر . ينظر : لسان العرب ــ مادة (هزز) .

ــ الأَباءُ بالفتح والمدّ : القَصَب ، ويقال : هو أَجَمةُ الحَلْفاءِ والقَصَب خاصَّة . ينظر : لسان العـرب ــ مادة (أبى) .

(٣) ينظر : ديوان العباس بن مرداس السلمي ــ جمع وتحقيق : د / يحيى الجبُّوري ص ٩٢ ــ ٩٣ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩١ م .

بدأ المُفَضَّل النُّكْرِيّ بتحديد مكان المعركة ، وزمانها ، والغرض منها ، ولعلَّ ذلك أمر بدهي في سياسة الحرب والقتال ، فقد عينه المُفَضَّل النُّكْرِيّ قديما ، وأول ما يعينه ابتداء خبراء الحروب العسكرية في وقتنا المعاصر ، تأمَّل قوله :

فإنَّكَ لو رأيتَ غداةَ جِئْنَا ∴ بِبطنِ أُثَالَ ضاحِيَةً نَسُوقُ

فِداءٌ خالَتي لِبَني حُيَيٍّ ∴ خُصُوصاً يومَ كُسُّ القومِ رُوقُ

وفي قوله (جئنا) ــ والله أعلم [١] ــ إنصاف ، بإسناد المجيء إلى (نا) الفاعلين ، يبرز فيه المُفَضَّل اشتراك الفريقين في صفة المجيء المحسوس ، وكأنَّه تجسيد لإرادة الفريقين ورغبتهما في خوض غمار تلك الحرب ، ففي المفردات : " جاء يجيء ومجيئا ، والمجيء كالإتيان ، لكن المجيء أعمّ ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة ، والإتيان قد يقال باعتبار القصد ، وإن لم يكن منه الحصول ، والمجيء يقال اعتبارا بالحصول ، ويقال (جاء) في الأعيان والمعاني ، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره ، ولمن قصد مكانا أو عملا أو زمانا " [٢]

وفي قوله :

..... ∴ ..... يومَ كُسُّ القومِ رُوقُ

---

(١) قد تكون (نا) الفاعلين هنا للشاعر وقومه فحسب ، " ويوحي هذا الخطاب بأنَّ هذه الجماعة وحشودها كانت غفيرة تذهل الناظر ، وتدهش المبصر " ينظر : صورة الجماعة وبلاغة الخطاب في قصيدة المُفَضَّل النُّكْرِيّ د / عبد الحميد محمود المعيني ص ١٥٦ ـــ مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ــ العلوم الإنسانية والاجتماعية ــ الأردن ــ المجلد الخامس عشر ــ العدد الثامن ــ ٢٠٠٠ م .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ــ تح : صفوان عدنان داوودي ــ مادة (جاء) ــ ط : دار القلم ــ دمشق ــ والدار الشامية ــ بيروت ــ ط : رابعة ــ ١٤٣٠ ه ــ ٢٠٠٩ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يطلق ليوم المعركة اسما ، ووصفا ينبئ عن شدتها ، وهو التكشير عن الأنياب ، فقوم لجيم " يَكْشِرون عن أسنانهم من شدّة الحرب " (١) ، فالتكشير " صفةٌ للمصطلى بنار الحرب عند اشتداد الأمر عليه ، ومثله لبعض البلغاء : صار الأكس كالأروق" (٢)

وما يقصده المُفَضَّل النُّكْرِيّ في قوله : (يومَ كُسُّ القومِ رُوقُ) وصف هؤلاء الأعداء : (قبيلة لجيم) بالكلح ، على طريقة الهجاء ؛ لأنَّه مظهر مِن مظاهر كراهية الموت في ساحة القتال ، وأنَّهم حين يقتلون تبدو أسنانهم القصيرة طويلة ، يقول شارح أبيات المغني : " يريد أنَّهم لما يقتلون فتكلح شفاههم فتظهر الأسنان القصيرة كالطويلة " (٣) وكأنَّ ذلك الوصف : (كلح الأعداء) أهمّ ما يميِّز ذلك اليوم .

ووصف تقلّص أسنان القوم الذي يُنبئ عن الكلح وشدّة الحرب ، أمر معهود في شعر الحرب عند القوم ، تجد عنترة يقول :

ولَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمّي بالضّحى ∴ إذ تَقلِصُ الشّفتَانِ عن وَضَحِ الفَمِ

فقوله : (إذ تَقلِصُ الشّفتَانِ) يعني عند شدة الحرب ، إذا فزع الإنسان فتقلصت شفتاه عن أسنانه ، والوضح : البياض ، يريد بياض الأسنان " (٤)

---

(١) جمهرة اللغة ــ مادة (كسس)

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ــ نشره : أحمد أمين وعبد السلام هارون ــ القسم الأول ــ ص ٢٨ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١١ ه ــ ١٩٩١ م .

(٣) شرح أبيات مغني اللبيب لعبد القادر بن عمر البغدادي ــ تح : عبد العزيز رباح و / أحمد يوسف دقاق ١ / ٣٥٠ ــ ط : دار المأمون للتراث ــ دمشق ــ ط : ثانية ــ ١٤٠٧ ه ــ ١٩٨٨ م .

(٤) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ــ قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد ــ ص ١٨١ ــ ط : دار الكتاب العربي ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .

فكلح الأسنان أدلّ على كمال الرهبة وبالغ الخوف من الأعداء وشدة بأسهم .

ثمَّ إنَّ ما خلعه المُفَضَّل النُّكْرِيّ على قومه مِن صفات الصبر ، والجلد، والصمود ، والجسارة ، عند قوله :

هُمُ صَبَرُوا وصَبْرُهُمُ تَلِيدٌ ∴ عَلَى العزاءِ إذْ بَلَغَ المضِيقُ
وهُمْ دفَعُوا المنيَّةَ فاستَقَلَّتْ ∴ دِراكاً بعدَ مَا كادَتْ تَحِيقُ
تلاقينَا بغينَةِ ذي طُريفٍ ∴ وبعضُهُمُ علَى بعضٍ حنيقُ

يحمل في تضاعيفه معنى الإنصاف بشكل لا تخطئه العين أبدا ، أليس قوله : (إذْ بَلَغَ المضِيقُ) ، وقوله : (بعدَ مَا كادَتْ تَحيقُ) ، وقوله : (وبعضُهُمُ علَى بعضٍ حنيقُ) يصوِّر فرط قوة الأعداء ، واشتداد وطيس الحرب بينهما ؟

فقوله : (إذْ بَلَغَ المضِيقُ) كناية عن بلوغ الشدة قوم المُفَضَّل النُّكْرِيّ منتهاها ، وقوله : (وهُمْ دفَعُوا المنيَّةَ) يجسِّد إحاطة الأعداء بقوم المُفَضَّل، وإذا كانت المنية لا تدفع ، وإنَّما يدفع الرِّجال في الميدان ، ففي التعبير تشبيه لرجال الأعداء المغاوير بالمنية ، بجامع فرط الإحاطة في كلّ ، ثمَّ حذف المشبه : (رجال الأعداء) ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الدفع ، على طريقة الاستعارة بالكناية .

ويأتي فضل الاستعارة بالكناية هنا في تصوير قوة الأعداء وشدتهم ، وأنَّ قوم المُفَضَّل ما كانوا يغالبون الرجال ، وإنما غالبوا المنية في أقبح شكل ، وأفظع صورة ، وفيه أيضا الإيماء إلى شجاعة قوم المُفَضَّل وشدة بأسهم ، فمن يغالب المنية هو الشجاع الذي لا ينازع .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فالاستعارة بالكناية في قوله : (وهُمْ دفَعُوا المنيَّةَ) تصوِّر من جانب قوة الخصوم ، وتجسِّد من جانب آخر شجاعة الأصحاب ، ففي ثناياها فخر ، وإنصاف خَفيّ .

وقوله : (بعدَ مَا كادَتْ تَحيقُ) يصوِّر ما ألمّ بقوم المُفَضَّل مِن الأعداء أبلغ تصوير ، وأنَّ الموت كان قريبا منهم ، وهذا يرمز إلى بالغ ما نزل بلكيز من لجيم ، ويُحسب للشاعر إيثار التعبير بلفظة (تحيق) ، فقد نقل الرازي عن الزجاج قائلا : " قال الأزهري : فسّر الزجاج (حاق) بمعنى أحاط ، وكان مأخذه من الحوق ، وهو ما استدار بالكمرة " [(١)] ففي التعبير إنصاف خفي أيضًا .

وقوله : (وبعضُهُمُ علَى بعضٍ حنيقُ) يصور غيظ كلا الفريقين من الآخر وبغضه ، وهذا دافع من دوافع الحرب بين قبيلتي لكيز ولجيم ، ولا يحنق أحد على آخر إلا إذا كان له عليه حق ، فالغيظ والحنق والبغض صورة من صور التكافؤ والتعادل بين الفريقين المنبئ عن صورة من صور الإنصاف .

أمَّا الإنصاف فبدا واضحا في منصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ عند قوله وهو يصف تلاقي الفريقين :

فَجاءُوا عارِضاً بَرِداً وجِئْنَا ∴ كَسَيلِ العرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ
مشَيْنَا شطرَهُمْ ومشَوْا إلْينا ∴ وقُلنَا اليومَ ما تَقضِي الحُقُوقُ
كأنَّ هزيزَنا يومَ التقَيْنَا ∴ هَزِيزُ أباءَةٍ فيهَا حَرِيقُ

(١) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ١٢ / ١٧٢ ــ ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ لبنان ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

حيث وظَّف الشَّاعِر التشبيه في حاقّ الإنصاف ، إذ اعتمده في تصوير هيئة القوم في تحفُّزهم للحرب والقتال ، ففيه شبَّه هيئة مجيء القوم في تسارعهم لملاقاة قبيلة لكيز (قوم المُفَضَّل النُّكْرِيّ) بالسحاب البرد ، ووجه الشَّبه: "أنَّ لهم حفيفاً ، ووقعاً شديداً متهافتاً ، كما يكون لذلك السحاب " (١)

ولعلَّ تخصيص السَّحاب بكونه بردا ، مقصود منه إضفاء شدَّة الوقع على ذلك السَّحاب ، فحقيقة البرد : " الماء الجامد ينزل من السَّحاب قطعا صغارا ، ويسمَّى حب الغمام ، وحب المزن " (٢) وهذا يضفي على الرِّجال صفة القوّة ، وأنَّهم ينزلون على رءوس أعدائهم كنزول الأحجار .

ولعلَّ في إيثار التعبير عن السَّحاب بلفظ : (عَارِضًا) خَاصَّة ، أمرا مقصودا ، وهو تصوير بالغ اجتماع القوم الأعداء لقتال الأصحاب ، وأنَّ مجيئهم قد كان في شكل جماعات لا فرادى ، وهذا بلا شك إنصاف ؛ إذ إنّه يعكس كثرتهم وقوتهم ، فالقوم حين يأتون جماعات ، تكون لهم في مرأى أعدائهم هيبة .

والمُتتبِّع للألفاظ العربية يبين له أنَّ " العرب تسمي السَّحاب الذي يُرَى في بعض أقطار السَّماء عشيا ، ثمَّ يصبح من الغد قد استوى ، وحبا بعضه إلى بعض عارضا ، وذلك لعرضه في بعض أرجاء السَّماء حين نشأ " (٣)

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٤٤٥ .

(٢) المعجم الوسيط ــ مادة (برد) .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ــ تح : د / بشار عواد معروف و / عصام فارس ٧ / ٢١ ــ ط : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤١٥ ه ــ ١٩٩٤ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثمَّ راح الشَّاعِر يقارن بين مجيء قومه ، ومجيء أعدائه ، فحيث وصف هيئة الأعداء بالسَّحاب البارد ، وغرضه وصف شدة وقعهم عليهم ، راح في قوله : (وجئنَا كَسَيلِ العرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ) يضفي على قومه صفة الزَّحف والاندفاع الشديدين اللازم عنهما إبراز مدى الشجاعة وقوة البأس ، فشبَّه هيئة مجيئهم للقاء أعدائهم بهيئة السَّيل الجارف الذي ضاق به الطَّريق ، فلا يترك شيئا أمامه إلا زاحه .

وتخصيص السَّيل بالوصف : (ضاقَ بهِ الطريقُ) إيغال القصد منه وصف القوم بالتدافع مع الكثرة ــ وكثرة العشيرة من مفاخر العربي قديما وحديثا ــ يُقال " اكْتَظَّ المَسِيْلُ بسَيْله : إذا ضاقَ به من كثرته " (١)

وإيثار المُفَضَّل النُّكْرِيّ للكناية عن صفة الاندفاع في قوله : (ضاقَ بهِ الطريقُ) الغرض منه المبالغة الشديدة في وصف اندفاع الأصحاب نحو أعدائهم ، وفيه من تجسيد المعنويات ، والتدليل على صحة الدَّعوى ، ولاسيَّما في جانب الفخر ما لا يخفى .

<u>ومَن يتأمَّل الوصفين :</u>

قوله في وصف أعدائه : (فَجاءُوا عارِضاً بَرِداً) وقوله في وصف أصحابه : (وجئنَا كَسَيلِ العرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ) يجد أنَّ الشَّاعِر وضع التشبيه الأول في قالب التشبيه المؤكَّد ؛ إذ كان المشبه به حالا صاحبها المُشبَّه ، ولعلَّ هذا يُنبئ عن الاتحاد والتماثل وشدَّة التشابه بين طرفيّ التشبيه ، وكأنَّ المشبَّه هو عين المشبه به ، أمَّا التشبيه الثاني فبناه على طريقة التشبيه المُرسل ، بإيثار كاف التشبيه التي تحمل معنى (شبه) ، فقد

(١) المحيط في اللغة للصاحب إسماعيل بن عباد ــ تح : الشيخ محمد حسن آل ياسين ــ مادة (كظ) ــ ط : عالم الكتب ــ بيروت ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .

" تأتي الكاف عند تشبيه الأفعال بها دالة على هيئة الفعل وصورته ، قائما بفاعله ، مرتبطا بمتعلقاته ، فتكون عندئذ بمعنى (شبه) " [١] .

ثمَّ إنَّ التشبيه هنا قد جاء " طرفاه مختلفين جنسا ، متفقين في صفة حسيَّة موجودة فيهما على سبيل التحقيق أو التخييل ، ودلالة الكاف على هذا النوع تختلف تبعا للصفة المراد الشَّبه فيها ؛ لأنَّها قد تكون مِن طريق حسّ الباصرة ، أو مِن طريق بقية الحواس الأخرى ، فإنْ كان التشبيه في صورة مشاهدة وروعي فيها مجرد الاتفاق في الهيئة والصورة المرئية دون نظر إلى القدر والمساحة كانت الكاف بمعنى (شبه) " [٢]

ويُحسب للشَّاعر التناغم والانسجام في بناء الوصفين : الأول : (فَجاءُوا عارِضاً بَرِداً) في وصف أعدائه ، والآخر : (وجئْنَا كَسَيلِ العرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ) في وصف أصحابه ، فالصورتان من واد واحد ، وفي بنائهما أيضًا لون من الائتلاف بين الألفاظ والمعاني ؛ إذ إنَّ دقَّة اختيار الألفاظ للمعاني ، ووضعها في موضعها الأشكل بها والأليق بحالها مِمَّا يُترجم قوة الحسّ والشعور عند الشَّاعِر .

وهكذا أحسن المُفَضَّل النُّكْرِيّ توظيف الصُّورة التشبيهية في تزيين الأعداء وتبيان حالهم ، لما يحمله التشبيه من مقدرة فائقة على تجلية المعاني في صورة أكثر وضوحا ، إذ هو " يرسم صورة للحسّ والشعور ، فينقل المعنى في بيان ووضوح ، وكلما جلَّى التشبيه المعنى ، وزاده قوة ووضوحا ، كان أملك للنفس ، وأبعد للتأثير " [٣]

---

(١) أدوات التشبيه ــ دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ــ د محمود موسى حمدان ص ١٣٧ ــ ط : مطبعة الأمانة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٤١٣ ه ــ ١٩٩٢ م .
(٢) أدوات التشبيه ــ د محمود موسى حمدان ص ١٧٠
(٣) لباب البيان د : محمد حسن شرشر ص ٢٩ ــ ط : دار الطباعة المحمدية ــ ط : ثانية ــ ١٩٨٠ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومن أساليب الإنصاف التي رسمت صورة لتكافؤ الفريقين وتعادلهم في الإقبال نحو الآخر في منصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ : الأسلوب الخبري ، وهو كثير في المنصفة ، تناغيا مع طريقة السَّرد القصصي الذي بُنيت عليه القصيدة ، فالنَّاظر في مُنْصِفَة المُفَضَّل النُّكْرِيّ يتبيَّن له أنَّها " حافلة بالأحداث والشخصيات والأزمنة والأمكنة مما يجعلها أقرب إلى عناصر السرد القصصي .. وفي القصيدة تعقد الأحداث قبل انفراجها بالحَنين والقرابة والهُدنة " (١)

تأمَّل قوله :

مشَيْنَا شطرَهُمْ ومشوا إلْينا ∴ وقُلنَا اليومَ ما تَقضِي الحُقُوقُ

فانظر تَرَ المُفَضَّل النُّكْرِيّ قد ساوى بين الأعداء والأصحاب في الإقدام للقاء الآخر عن طريق الجُملة الخَبرية : (مشَيْنَا شطرَهُمْ ومشوا إلْينا) .

وقد وظَّف المُفَضَّل النُّكْرِيّ الأسلوب الخبري أتمّ توظيف في تحقيق غرض الشَّاعر وهو تجسيد معنى الإنصاف في القصيدة عن طريق وضع الأسلوب الخبري في قالب مخصوص يميزه ويجعله يتناغى مع السِّياق ، ألا وهو قالَب التقابل أو التعادل بين الفريقين ، وشيوعه في القصيدة يبرهن على أنَّ الشَّاعر عمد إليه ، ولم يكن عفو خاطر ، ففي المنصفة تكرَّر ذلك في مواطن عدَّة ، أولُها ما نحن بصدده هنا ، في قوله :

فَجاءُوا عارِضاً بَرِداً وجئنَا ∴ كَسَيلِ العرضِ ضاقَ بهِ الطريقُ

مَشَيْنَا شطرَهُمْ ومشوْا إلْينا ∴ وقُلنَا اليومَ ما تَقضِي الحُقُوقُ

---

(١) ملامح السرد القصصي في الأصمعيات ــ دراسة وصفية تحليلية ــ د محمد زروق الحسن علي (رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية بجامعة أد درمان الإسلامية) ــ ص ١٨٦ ــ

ومنها أيضا ــ وسنعرض له في موضعه من البحث ــ قوله :

فأشْبَعْنَا السِباعَ وأشْبعُوهَا ∴ فراحَتْ كلُّهَا تَئِقٌ يَفُوقُ

وقوله :

فأبكينَا نساءَهُمُ وأبكَوا ∴ نساءً مَا يَسُوغُ لهُنَّ رِيقُ

وقوله :

قَتَلنَا الحارثَ الوضَّاحَ فيهِمْ ∴ فَخَرَّ كأنَّ لِمَّتَهُ العُذُوقُ
أصَابَتْهُ رماحُ بنَي حُيَيٍّ ∴ فَخَرَّ كأنَّهُ سيفٌ دَلُوقُ
وقَدْ قتلُوا بهِ منَّا غُلاماً ∴ كَرِيماً لمْ تُؤشِّبهُ العُرُوقُ

هذا، وفي اختيار لفظ (المشي) دون غيره تبيان أنَّ الإقدام نحو لقاء الآخر يكون في أناة وريث دون تعجُّل، ولعلَّ هذا يُنبئ أنَّ كلا مِن الفريقين يعترف بقدرات الآخر القتالية، وأنَّه لايستهين به، ولا يرى الظفر به أمرا ميسورا،فاللفظة هنا عنصر مُهمّ مِن عناصر الإنصاف في القصيدة كما ترى.

فقد حكى الثعالبي ــ رحمه الله ــ في فقه اللغة ترتيب مشي الإنسان وتدريجه إلى العدو : الدبيب ، ثمَّ المشي ، ثمَّ السعي ، ثم الإيفاض ثمَّ الهرولة ، ثمَّ العدو ، ثمَّ الشد [١]

ثمَّ إنَّ قول المُفَضَّل النُّكْرِيّ: (وقُلنَا اليومَ ما تَقضِي الحُقُوقُ) كناية عن شدة اللقاء وصعوبة التلاقي ؛ إذ فيه الاعتراف بثأر كلّ فريق من خصمه ، ففيه من الإنصاف ما لا يخفى .

(١) ينظر : فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي ــ شرحه وقدم له : د / ياسين الأيوبي ص ٢٢٢ ــ ط : المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ــ ط : ثانية ــ ١٤٢٠ ه ــ ٢٠٠٠ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أمَّا إذا كان قول المُفَضَّل : (وقُلنَا اليومَ ما تَقضِي الحُقُوقُ) يحكي ما جاء على لسان قومه خاصة ، وأنَّ قومه يرجون في هذا اليوم إدراك حقوقهم من أعدائهم : (قوم لجيم) ، فيظهر لي أيضا أنَّ هذا يُترجم الإنصاف في صُورة واضحة ، إذ فيه الاعتراف الصريح بنيل الأعداء منهم في واقعة مضت قبل تلك الواقعة .

وفي قوله :

كأنَّ هزيزَنا يومَ التقَيْنَا ∴ هَزِيزُ أباءَةٍ فيهَا حَرِيقُ

اكتفى بتصوير هزيز القوم في لحظات التلاقي الأولى معتمدا على التشبيه في صورة المصدر الدَّالّ على الاتحاد والتماثل ، وهو ــ كما يرى ابن الأثير ــ مِنْ أحسن ما يستعمل في باب التشبيه [1] فتراه قد شبَّه هيئة تحرّك الفريقين نحو الآخر عند التلاقي ، بحركة فرقعة واضطراب أجمة القصب اليابسة وهي تحترق ، وهو تشبيه بديع جمع فيه بين متباينين ، وقد التقطه المُفَضَّل النُّكْرِيّ مِن محيط بيئته البدوية ، فالطبيعة كانت ــ ولا تزال ــ مصدر الإلهام الرَّئيس للشعراء في كلّ عَصر ومِصر .

هذا ، وقد تناغت الأبيات الخمس الأولى في منصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ ــ والتي خصَّها في تصوير لواعج الشوق إلى محبوبته التي رحلت ، وتركته يصارع أحزانه ، ويغالب شوقه وحنينه ، متذاكرا أُنسه بمجلسها والحديث معها ــ مع معنى الإنصاف ، فأبيات المقدمة :

ألمْ تَــرَ أنَّ جيرتَنَا استقَلُّوا ∴ فنيَّتُنَا ونيتُهُمْ فَرِيقُ
فدمعِي لُؤلُؤٌ سَلِسٌ عُراهُ ∴ يَجُرُّ عَلى المَهَاوي مَا يَلِيقُ

(١) ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعِر لضياء الدين بن الأثير ــ قدمه وعلق عليه : د / أحمد الحوفي ، و د/ بدوي بطانة ــ ٢ / ١٢٤ ــ ط : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ــ الفجالة ــ القاهرة ــ ط : ثانية ــ من دون تاريخ .

غـدَتْ مَـا دُمْـتَ إذْ شـحطَتْ سُـلَيْمَى ∴ وأنْـتَ لِـذكرِهَا طَـرِبٌ مَشُـوقُ
فودِّعْهَـا وإنْ كانَـتْ أَنَـاةً ∴ مُبتَّلَـةً لهَـا خَلْـقٌ أَنيـقُ
تُلَهِّـى المـرءَ بالحِـدْثَانِ لهـواً ∴ وتَحْدِجُـهُ كمَـا حُـدِجَ المُطِيـقُ

ــ كما يبين للناظر ــ " تعلن عن موقف الشَّاعِر أمام صاحبته سليمى ، وهو يتغنَّى بحسنها ، ويسوق غزله فيها ، ثمَّ يستظهر الحزن والألـم عنـد غيابها ورحيل قومها ، وهي حال تفصح عن عاشـق يـودع ، ومعشـوقة ترحل، وأنَّ هذه الحال تطرح إشكالية العلاقة بين الشَّاعِر والآخر ، وبالتالي بين لكيز ولجيم ، وتكون المقدمة انفتاح على الموضوع ودلالة عليه " (١)

والنَّاظر هنا يجد أنَّ المفضَّل عبَّر بالتوديع عند قوله : (فودِّعْهـا وإنْ كانَتْ أَنَاةً ...) أمَّا العباس بن مرداس فعبَّر بالدَّع عند قوله : (فدَعْها ولكِنْ قدْ أتَاهَا مُقادُنَا) والتوديع فيه دلالة على أنَّ الشاعر لا يزال يحمل في قلبـه عشق محبوبته ، وأنَّه يأمُل أن يتلاقيا مرة ثانية ، فهو وداع على أمل العود والتلاقي ، وهذه أمارة مِن أمارات الوفاء والإخلاص ، ومنْ ثَمَّ الإنصـاف ، ثمَّ إنَّ أصل التوديع " مِن الدَّعة ، وهو أنْ تدعو للمُسافر بأن يتحمل الله عنه كآبة السفر ، وأنْ يبلِّغه الدَّعة ، كما أنَّ التَّسليم دعاء له بالسَّلامة ، فصـار ذلك مُتعارفا في تشييع المُسافِر وتركه " (٢) وهذا مِن فَرْط الحُبّ أيضًا .

أمَّا تعبير العَباس بالدَّع فيُنبئ عن التَّرك والسلو ، وكأنَّه نسي حبَّها ، إذ أقبل لمُلاقاة أعدائه ، ويظهر لي عدم إخلاص الرَّجل مع مَن يُحب ، فقـد استهلَ المُنصِفة بذكر (أسماء) في البيتين الأولين في قوله :

(١) صورة الجماعة وبلاغة الخطاب في قصيدة المُفَضَّل النُّكْرِيّ د / عبد الحميد محمـود المعينـي ص ١٦٧ ــ مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ــ العلوم الإنسـانية والاجتماعيـة ــ الأردن ــ المجلـد الخامس عشر ــ العدد الثامن ــ ٢٠٠٠م .
(٢) مفردات الراغب ــ مادة (ودع) .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لأسماءَ رَسمٌ أصبحَ اليومَ دارِسا ∴ وأقفرَ منهَا رحرَحانَ فَراكِسا
فَجَنْبَي عَسيبٍ لا أرَى غيرَ ماثلٍ ∴ خلاءً منَ الآثارِ إلَّا الرَوامِسَا

وأردف هذين البيتين بذكر أخرى (سليمى) في الأبيات التالية :

لَيَالِي سَلمَى لا أرَى مِثلَ دَلِّهَا ∴ دَلالاً وَأُنسًا يُهبِطُ العُصمَ آنِسا
وأحسنَ عَهداً للمُلمِ ببيتِهَا ∴ ولا مَجلِساً فيهِ لِمَنْ كانَ جالِسا
تضوَّعَ منهَا المِسكُ حتَّى كأنَّما ∴ تُرجِّلُ بالرَيْحَانِ رَطباً ويَابِساً
فَدَعْهَا ولكِنْ قَدْ أتَاهَا مُقادُنَا ∴ لأعدائِنَا نُزجِي الثِقالَ الكَوادِسا

أيَحْفظ مثل هذا وِداد مَن يَهْوى ؟ أم أنَّ مثلَه ــ رضي الله عنه ــ يتنقل بين النِّساء ، كَما تتنقَّل الفَراشات بين الزُّهُور ؟

****

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فقد حكى في سينيته ــ كما أسلفنا ــ حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى مُتَّكئا على أسلوبي التعجُّب والتفضيل كأسلوبينِ رئيسينِ للإنصاف ، وقد وُفِّق أيَّما توفيق في إنصاف أعدائه ، حيث أبرز أسلوبا التعجب والتفضيل بالغ إعجابه بشجاعة القوم وبسالتهم ، وأضفيا على المعاني التي حكاها لونا من المبالغة .

فقوله رضي الله عنه :

فَدَعْهَا ولكِنْ قَدْ أتَاهَا مُقادُنَا ∴ لأعدائِنَا نُزجِي الثِقالَ الكَوادِسا
بجَمْعٍ يريدُ ابنَى صحارٍ كلَيهِمَا ∴ وآلَ زُبيدٍ مُخطِئاً ومُلامِساً
على قُلُصٍ نَعلُوبِهَا كُلَّ سَبْسَبٍ ∴ تَخالُ بِهِ الحرباءَ أشمَطَ جالِسا
سَمَوْنَا لَهُمْ سَبْعاً وعشرينَ ليلةً ∴ نَجُوبُ من الأعراضِ قَفْراً بَسابِسا
فبتنَا قُعُوداً في الحديدِ وأصبحُوا ∴ عَلَى الرُكباتِ يجْرُدُونَ الأيابِسا

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الحيِّ حيّاً مُصَبِّحاً ∴ ولا مِثْلَنا لَمَّا التقينَا فَوارِسا
أكَرَّ وأحمَى للحقيقَةِ مِنهُمُ ∴ وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا (١)

يتجسَّد فيه أيضا عناصر السَّرد القصصي ، فقد بدأ العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ وصف المعركة حين راح يذكر ما أُعد للأعداء من خيل وإبل ، وهما عدّة الفارس المحارب في ذاك الوقت ، وأتبع ذلك بحكاية معاناته في تلك الرحلة التي من شأنها قطع المسالك الصعبة ، وجوب القفار والفلوات الوعرة النائية ، وذلك في قوله في صدر السِّينيَّة :

فَدَعْها ولكِنْ قَدْ أتَاهَا مُقادُنَا ∴ لأعْدائِنَا نُزجِي الثِقالَ الكَوادِسا (٢)
بجَمْعٍ يُرِيدُ ابنَى صُحَارٍ كلَيهِمَا ∴ وآلَ زُبَيدٍ مُخطِئاً ومُلامِساً (٣)
علَى قُلُصٍ نَعلُو بِهَا كُلَّ سَبْسَبٍ ∴ تَخالُ بِهِ الحرباءَ أشمَطَ جالِسا (٤)
سَمَوْنا لَهُمْ سَبْعاً وعشرينَ ليلةً ∴ نَجُوبُ من الأعراضِ قَفْراً بَسابِسا (٥)

واستهل سينيَّته ببثّ الشَّوق والحنين إلى محبوبته : (أسماء)، من خلال وقوف الشَّاعِر على أطلال دارها ، متعرضا لوصف دلّها وجمال

(١) ينظر : ديوان العباس بن مرداس السلمي ــ جمع وتحقيق : د / يحيى الجبُّوري ص ٩٢ ــ ٩٣ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩١ م .
(٢) مقادنا : يعني الخيل ، نزجي : نسوق ، الثقال : الإبل ، الكوادسا : يركب بعضها بعضا آخر الليل . ينظر هامش ٢ في ديوان الأصمعيات ص ٢٢٩ .
القَوْدُ نقيض السَّوْق ، يَقُودُ الدابَّة من أَمامِها ، ويَسُوقُها من خَلْفِها ، فالقَوْدُ من أَمام ، والسَّوْقُ من خَلْف .. والقَوْد من الخيل التي تُقادُ بمَقاوِدِها ولا تركب ، وتكون مُودَعَة مُعدّة لوقت الحاجة إليها ، يقال هذه الخيلُ قَوْدُ فلان القائد .. ينظر : لسان العرب ــ مادة (قود) .
(٣) ملامس : مصيب . ينظر هامش ٢ في ديوان الأصمعيات ص ٢٢٩
(٤) السَّبْسَبُ المَفازَة .. السَّبْسَب : الأَرض القَفْرُ البعيدة مُسْتَوِيَةً وغيرَ مستويةٍ وغَليظة وغيرَ غليظةٍ لا ماءَ بها ولا أَنِيسَ . ينظر : لسان العرب ــ مادة (سبسب) .
(٥) بسابس : لبَسْبَس والسَّبْسَب: الفَضاء القَفر الواسع، يُجمع بَسابِس وسباسِب . ينظر : جمهرة اللغة ــ مادة (سبسب) .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مجلسها ، مختتما ذلك بوصف رائحتها الزَّكية ، وذلك في قوله في الأبيات الخمس الأولى من المنصفة :

لِأَسْمَاءَ رَسْمٌ أَصْبَحَ اليَوْمَ دَارِسَا ∴ وأقفرَ مِنهَا رحرَحَانَ فَراكِسَا
فَجَنْبَي عَسِيبٍ لا أرَى غيرَ ماثِلٍ ∴ خَلاءً مِنَ الآثَارِ إِلَّا الرَوَامِسَا
لَيَالِي سَلمَى لا أرَى مِثْلَ دَلِّهَا ∴ دَلالاً وَأُنسًا يُهبِطُ العُصمَ آنِسَا
وأحسَنَ عَهداً للمُلِمِ ببيتِهَا ∴ ولا مَجلِساً فيهِ لِمَنْ كَانَ جالِسَا
تضَوَّعَ منهَا المِسكُ حتَّى كأنَّمَا ∴ تُرجِّلُ بالرَيْحَانِ رَطباً ويَابِساً

أمَّا حكاية حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى ووصف هيئتهم وانطباعات الشَّاعِر الأولى فقد رصده العباس بن مرداس في قوله :

فبتنَا قُعُوداً في الحديدِ وأصبحُوا ∴ عَلَى الرُكباتِ يجْرُدُونَ الأيابِسا (١)
فَلَمْ أرَ مِثْلَ الحيِّ حيّاً مُصَبِّحاً ∴ ولا مِثْلَنَا لَمَّا التقينَا فَوارِسا (٢)
أكَرَّ وأحمَى للحقيقَةِ مِنهُمُ ∴ وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا

وأول ما يلقاك في هذا المشهد قوله :

فبتنَا قُعُوداً في الحديدِ وأصبحُوا ∴ عَلَى الرُكباتِ يجْرُدُونَ الأيابِسا

وفيه يصف انشغال الأعداء بفعل التافه مِن ملذَّات النُّفوس كنزع اللحم عن العظم ، وتقطيع اللحم ، وفيه مِن إبراز وصف القوم بالخمول ، وعدم النشاط ، وانصرافهم عن جليل الأعمال ما لا يَخفى .

ويُمكن أن يُحمل هذا الوصف على وصف القوم الأعداء بفرط الشجاعة التي مِن شأنها عدم هيبة الأعداء ، وكأنَّ عدم التهيؤ اطمئنان منهم بقدرتهم

(١) الأَيابِسُ ما كان مثل عُرْقوب وساق ، والأَيْبَسان ما لا لحم عليه من الساقَيْن . ينظر : لسان العرب ــ مادة (يبس) .
(٢) الحي المُصبح : الذي يُؤتى صُبحا للغارة . ينظر : شرح ديوان الحماسة ص ٤٤٠

على التحوّل مِن حال السلم إلى حال الحرب ، ويناسبه السِّياق العام للقصيدة المُتمثِّل في إنصاف الأعداء ، وخلع ما يتَّصفون به مِن جليل الصفات والأفعال .

هذا، وقد وُفِّق الشَّاعر في إيثار التعبير بلفظة : (الأيابسا) في قوله: (يجْرُدُونَ الأيابِسا) إذ هي الأوفق بالغرض المؤم ، وهو تصوير غفلة القوم وخمولهم وانشغالهم بما لا يرجى نفعه ، فـ " الأَيابِسُ ما كان مثل عُرْقوب وساقٍ ، والأَيْبَسان ما لا لحم عليه من الساقَيْن " (١)

فقوله : (فبتنَا قُعُوداً في الحديدِ) مقصود منه إبراز كمال استعدادهم وتحفُّزهم للقتال ، وأنَّهم باتوا قعودا وقد تستروا بأسلحتهم لم ينزعوها عنهم، فالوصف كناية عن نشاط القوم وكمال التهيؤ ، وعدم الغفلة ، وقوله: (في الحديدِ) يشي بأنَّ أصحابه قد جعلوا غطاءهم سلاحهم ، تنبيها على بالغ الاستعداد وكمال اليقظة ، وفرْط التهيؤ .

وأمَّا قوله في جانب الأعداء : (وأصبحُوا عَلَى الرُكباتِ يجْرُدُونَ الأيابِسا) فهو كناية عن الغفلة والخمول ، وطلب الدَّعة والراحة .

وفي التعبير بالمضارع في قوله : (يجْرُدُونَ الأيابِسا) إفادة تجدُّد الحدث الذي يشي بطول زمان الغفلة والخمول ، وفيه كذلك استحضار لصورة غفلة هؤلاء القوم ، وكأنَّها حيَّة تحدث الآن ، وأنَّها لم تمض بعد .

هذا ، وتبدو مقدرة الشَّاعِرِ وملكته الشَّاعِرية هنا في استطاعته أن يجعل من وصف القوم بالغفلة ــ وهو وصف غير محمود للقوم ــ طريقا للإنصاف ، وتأمَّل كيف أخرجه خروجا سهلا لينا ، حيث راح العباس بن مرداس يقول عقب هذا البيت :

---

(١) لسان العرب ــ مادة (يبس) .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فلَـمْ أرَ مثـلَ الحـيِّ حيّـاً مُصَـبِّحاً ∴ ولا مِثلَنـا لَمَّـا التقينَـا فَوارِسـا
أكـرَّ وأحمَـى للحقيقَـةِ مِـنهُمُ ∴ وأضـرَبَ منَّـا بالسُـيُوفِ القوانِسـا

وعنده يلجأ إلى التعجُّب السَّماعي معتمدا إياه أسـلوبا مِـن أسـاليب الإنصاف ، حيث تعجب من سرعة تحوُّل الأعداء من حال الخفض والدعـة والخمول إلى حال الجد والنشاط واليقظة ، ومن حال السلم إلى حال الحرب ، وكأنَّ العباس بن مرداس يريد أنْ يجسِّد البون بـين الحـالين ، وأنَّ حـي الأعداء الذي رآه الشَّاعِر حال وصوله وأصحابه وما عليه هؤلاء القوم مـن الغفلة غير الحي الذي صبحناه للإغارة ، فهو يقول : " لمْ أرَ مُغـارا عليـه كالذين صبحناهم ، ولا مُغيرا مثلنا يوم لقيناهم ، فقَسَم الشهادة قَسْم السواء بين أصحابه وأصحابهم ، وتناول بالمدح كل فرقة منهم " (١) وكأنَّه يريـد أنْ يقول : إنَّ للقوم حالين مختلفين ، فحالهم عند لقاء الأعداء ، يغاير حـالهم عند الدَّعة والراحة ، ففي الدَّعة تعجَبُ لانغماسهم في اللذات ، وكأنَّهم مـا جبلوا إلا على ذلك ، وفي ساعة الحرب تراهم فرسانا مغاوير ، وكأنَّ ميدان القتال ساحتهم التي يجدون فيه أنفسهم .

ففضل أسلوب التعجب هنا أنه أضفى لونا ما من المبالغة في المتعجـب منه ، وهو حي الأعداء ؛ إذ نفى أن يوجد لهذا الحي مثيل في وقت الإغارة عند الصَّباح خاصة ، ذاك الوقت الذي يُستيقظ فجأة فيه على صوت الأعداء، فقد أثبت لهم البأس والشجاعة ، وشدة الردع ، وحسن التصـدِّي ، وفـرْط النشاط ، وجميل التَّأهُّب ، في وقت يغفل فيه الناس عن مثل ذلـك ، وهـو وقت الصباح ، حيث الرَّاحة والدَّعة والسُّكون ، وقد جسَّد التعجب كذلك مدى تأثر وانفعال الشَّاعر بأعدائه ، حتَّى كأنَّه يغبطهم ويتمنَّى مثل ما لهم .

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ــ نشره : أحمد أمين وعبد السلام هارون ــ القسـم الأول ــ ص ٤٤٠ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١١ ه ــ ١٩٩١ م .

كما أنَّ الشَّاعر في قوله : (ولا مِثلَنا لمَّا التقينَا فَوارِسا) يتعجَّب من فوارس قومه خاصَّة ، ويبرز أنَّه لا يجد لهم مثيلا عند التلاقي خاصَّة ، فهو تعجب أخذ شكلا من أشكال المبالغات المقبولة .

وبالتأمُّل في شطريّ البيت :

قوله في أعدائه : (فلَمْ أرَ مثلَ الحيِّ حيّاً مُصبِّحاً) .

وقوله في أصحابه : (ولا مِثلَنا لمَّا التقينَا فَوارِسا) .

تجد أنَّ بناء البيت على طريقة التقابُل هذه ، مظهر من مظاهر الإنصاف عند العباس بن مرداس ، حيث مدح أعداءه وقابله بمدح أصحابه ، وبدأ بالأعداء أولا ، وفي البيت إنصاف شكلي ؛ إذ بنى الشَّاعِر مدحة أعدائه في شطر ، ومدحة أصحابه في شطر أيضًا .

وفي البيت رد عجز البيت على صدره [١] : (فلَمْ أرَ مثلَ ــ ولا مِثلَنا) فالمثل المنفي أولا مثل الأعداء ، والثاني مثل الأصحاب ، وقد أراك الشَّاعِر من خلال هذا الترديد العجيب أنَّ لكلّ فريق مِن هذين الفريقين خصوصية لا تكون في الآخر ، وأنَّ فروسية الأعداء صبيحة الإغارة ، وهي خاصَّة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم ، قابلتها فروسية الأصحاب حين التلاقي ، فالشَّاعِر ــ كما يبدو لي ــ قد وظف الترديد أو ردّ العَجُز على الصَّدر أتمّ توظيف لتحقيق معنى الإنصاف الذي بنى القصيدة مِن أجله .

---

(١) الترديد : عرفه ابن رشيق بقوله : (هو أن يأتي الشَّاعِر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر ، في البيت نفسه ، أو في قسيم منه) . ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ١ / ٣٣٣ ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : خامسة ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأمَّا قول العباس بن مرداس رضي الله عنه :

أكـــرَّ وأحمَـــى للحقيقَـــةِ مِـــنهُمُ ∴ وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا (١)

فـــ " المصراع الأول ينصرف إلى أعدائه ، وهم بنو أسد ، والمصراع الثاني إلى عترته وأصحابه ، والمراد : لم أر أحسن كـــراً ، وأبلـــغ حمايـــةً للحقائق منهم ، ولا أضرب للقوانس بالسيوف منا " [٢] ، وفيـــه وظَّـــف الشَّاعِر أسلوب التفضيل ليؤدي غرضه من تحقيق الإنصاف لأعدائه ، حيث أثبت لهم حُسن الحَمل على أعدائهم ، وعدم الفرار عن ساحة القتال ، وهذا يُنبئ عن شجاعتهم وإقدامهم ، كما أضفى عليهم صفة الشهامة التـــي مِـــن شأنها حماية الأهل والجيران والتصدِّي لكلّ مَن يُريد النَّيل منهم .

وفي اختيار التعبير بـــالكرّ في قوله : (أكر وأحمَى للحقيقَةِ مِـــنهُمُ) إفادة بالغ جدَّة القوم وفرط نشاطهم ؛ إذ إنَّ تضعيف الرَّاء في الفعل : (كر) يوحي بتكرار الحمل وتجدُّد الإقدام ، وتتابع الصِّيال مرَّة بعد أُخرى .

لكن وصف الأصحاب بالمقدرة الفائقة على ضرب قوانس أفراس العدا خاصَّة عند قوله : (وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا) إنَّما كان لمُقابلة تمايز الأعداء بشدّة الكرّ وفرْط الإقدام ، وكأنَّ الشَّاعِر يُوهمك أنَّ حديثه عن كـــرّ الأعداء مهاد ووطاء لحديثه عن ضراب عترته وأصحابه .

---

(١) أكر : من كر عليه ، إذا صال عليه . وأحمى : من الحماية . وحقيقة الرجل : ما يحق عليه حفظه من الأهل والأولاد والجار . ينظر : خزانة الأدب ٨ / ٣٢٥ .

ــ القونس قال الدريدي : هو أعلى البيضة ، وقال غيره : قونس الفرس : ما بين أذنيه إلى الـــرأس ، ومثله قونس البيضة من السلاح . ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ / ٤٤١

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ / ٤٤١

ولعلَّ الشَّاعِر يقصد بالكرّ كرّ خيول العدا وأفراسهم خاصَّة ، وإنْ كان " مِكَرٌّ بكسر الميم يُقال في الرَّجل والفرَس " (١) ؛ لأنَّ حديث الشَّاعر عن ضراب عترته وأصحابه لم يتعرض فيه لضراب رجال أعدائه ، وإنَّما كان مقصورا على حكاية ضرب قوانس أفراس الأعداء خاصة ، فالكر للأفراس ، والضرب لقوانسها .

وخص القوانس : (وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا) ليشي بشدة الضراب وبالغ الفعل من ناحية ، وفرط مهارة القوم وإبراز بالغ خبرتهم في ميدان القتال مِن ناحية أخرى ، فهم يعرفون كيف يوجعون أعداءهم ، وأينَ يكون الضّراب الذي يفسد على العدو كرَّه وإقدامه ، ففي المحيط : " القَنْسُ والقِنْسُ : الأصْلُ والمَنْبِت في كلِّ شَيْءٍ ومُعْتَمَده ... وقَوْنَس الطَّرِيق : جادَتُه ، وكذلك قَوْنَسُ البَيْضَة من السِّلاح " (٢)

ويَحْمل أُسلوب التفضيل في قول العباس : (أكرَّ وأحمَى للحقيقَةِ مِنهُمُ) في ثناياه مدح العترة والأصحاب أيضًا بناء على أنَّ المُفَضَّل عليه يشارك المُفَضَّل في المعنى غالبا ، كما يحمل قوله : (وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا) في طياته مدح الأعداء ، فالمصراع الأول يثبت فضل قومه أيضًا في الكرّ وحماية مَن يلزمهم حمايته ، وإنْ كان دون كرّ الأعداء وشهامتهم ، كَما يُثبت المصراع الثاني فضل الأعداء أيضًا في إحسان الضّرب للقوانس من الأفراس بالسّيوف ، وإنْ كان دون إحسان أصحابه ، هذا وجه ، ووجه آخر أن يكون المراد مِن التفضيل في البيت جعل الوصف خاصًّا بالمُفَضَّل لا يتعدَّاه إلى غيره ، وكأنَّ الوصف جدير به وحده .

---

(١) تاج العروس ــ مادة (كرر) .

(٢) المحيط في اللغة ــ مادة (قنس) .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يقول أبو البقاء الكفوي ، وهو يحدِّد استعمالات أفعل التفضيل : " وقد يقصد به تجاوز صاحبه وتباعده عن الغير في الفعل ، لا بمعنى تفضيله بالنسبة إليه بعد المشاركة في أصل الفعل ، بل بمعنى أنَّ صاحبه متباعد في أصل الفعل ، متزايد إلى كماله فيه على وجه الاختصار ، فيحصل كمال التّفضيل ، وهو المعنى الأوضح في الأفاعل في صفاته تعالى ، إذ لم يشاركه أحد في أصلها حتَّى يقصد التفضيل " (١) ولا يخلو التفضيل على كلا الوجهين مِن إنصاف ، وإنْ كان الثاني أبلغ .

وفي البيت أيضًا إنصاف شكلي ؛ إذ بنى الشَّاعر مدحة أعدائه في شطر ، ومدحة أصحابه في شطر أيضًا .

هذا ، وما أجمله الشَّاعر وأبهمه وأخفاه في قوله مادحا أعداءه :

فلَمْ أرَ مثلَ الحيِّ حيّاً مُصَبِّحاً ∴ ولا مِثلَنا لمَّا التقينَا فَوارِسا

فصَّله وبيَّنه ووضَّحه في قوله عند البيت الذي يتلوه :

أكرَّ وأحمَى للحقيقَةِ مِنهُمُ ∴ وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا

ففي الخِزَانَة : " قال ابن الحاجب : قوله : أكر وأحمى إلخ ، تبيين لما ادَّعاه فيما تقدَّم ، فيجوز أن ينتصب بفعل مقدَّر لا صفة لما تقدَّم ، لئلا يفصل بين الصفة والموصوف بما هو كالأجنبي إذا جعل تمييزاً " (٢)

فكأنَّ الشَّاعر قد بيَّن لك بالدليل الساطع المحسوس صحة ما ادَّعاه ، فقد وقع البيت موقع الجملة التفسيرية لما قبله .

---

(١) الكليات ــ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ــ أعدَّه للطبع ووضع فهارسه د / عدنان درويش و محمد المصري ص ٩٦ ، ٩٧ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثانية ــ ١٤١٩ ه ــ ١٩٩٨ م .

(٢) خزانة الأدب ٨ / ٣٢٤ .

وقول الشَّاعِر : (ولا مِثلَنا لمَّا التقينَا فَوارِسا) أيضًا دعوى ، دلَّل عليها ببرهان يؤكِّد صدق دعواه ويثبته من خلال حكاية فائق مقدرة القوم على قنص خيول أعدائهم التي يلزم عنها هزيمة الأعداء ذاتهم ، وذلك عند قوله : (وأضرَبَ منَّا بالسُيُوفِ القوانِسا) .

وفوق ذلك ، فقد عرَف البلاغيون لطريقة البيان هذه ــ أعني الإيضاح بعد الإبهام ــ فضْلها على نفس المُتلقي ، حيث علَّلوا إيثار صاحب البيان لها بقولهم : " ليرى المعنى في صورتين مختلفتين ، أو ليتمكَّن في النَّفس فضل تمكُّن ، فإنَّ المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوَّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفضيل والإيضاح ، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكَّن فيها فضل تمكُّن ، وكان شعورها به أتمّ " (١)

هذا ، وللباحث القول هنا : إنَّ كلا الشَّاعرين قد وفَّق في تصوير الإنصاف عند حكاية اللحظات الأولى للقاء التي صورت طريقة الحشد للمعركة ، وقد تنوَّعت الأساليب والآليات التي وُظِّفت لذلك ؛ لأنَّ لكلّ شاعر قالَبا ومنوالا خاصًّا به ، يباين منوال غيره وقالَبه ، فالمُفَضَّل النُّكْرِيّ اعتمد على الصورة التشبيهية ، والتصوير الخبري خاصة ، وقد أحسن توظيفهما أتمّ توظيف ، وقد بان ذلك جليًّا إبان التحليل .

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فقد اتَّكأ على أُسلوبي التعجُّب والتفضيل خاصَّة ، وقد استطاع بحسِّه المُرهف أن يضمنهما من المعاني ما يحمله أسلوب المبالغة ، وقد عاونت تلك الأساليب فنون بلاغية

(١) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) للخطيب القزويني ــ وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين ص١٥١ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط: أولى ــ ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أُخرى ، لم تكن رئيسة في الإنصاف ، كالترديد أو رد العجز على الصدر ، والتفسير بعد الإبهام ، فضلا عن الألفاظ التي أحسن كلّ شاعر انتقاءها وتوظيفها ، وهو اختيار ينبئ عن الفهم الدَّقيق لخصائص هذه الألفاظ ، ودلالات تلك التراكيب .

ولا يغيب عن البال أنَّ الشَّاعرين كليهما قد وضعا الإنصاف على طريقة التقابُل أو التكافُؤ أو التعادُل ، وهو وجه مِن وُجوه التلاقي بين المنصفتين في طريقة البناء ، وهو في الوقت ذاته مظهر مِن مظاهر الإنصاف ، فاستدعاء وصف الأصحاب يقابله بحكاية حال الأعداء ، حتَّى إنَّ البحث قد رصد صورة مِن صور الإنصاف الشَّكلي ؛ إذ ترى الشَّاعر يبني بناء مُتقاربا ، فيصف أعداءه في شطر مِن البيت ، ويصف أصحابه في الشَّطر الآخر . والله تعالى أعلم بالصواب .

****

المبحث الثاني : أساليب الإنصاف في تصوير مقدرة الأعداء على القتل والردع حين المواجهة .

لقد أنصف المُفَضَّل النُّكْرِيّ في قافيته أعداءه من خلال تصويره كثرة القتلى على أرض المعركة في صفوف الفريقين الأصحاب والأعداء على حدّ سواء ، فكان الشَّاعر مُنصفا إلى أبعد حدّ ، وقد استلزم الإنصاف عند النُّكْرِيّ في هذا الموطن التكثير الذي وظَّف له الشَّاعِر ــ كما سترى ــ الأسلوب الخبري على تنوُّع أشكاله ، فتراه حينا يُصدر الخبر بلفظ (كُل) ، وتارة أخرى يصدّره بـ (كم الخبرية) .

ولا شكَّ أنَّ إنصاف الأعداء يعكس في الوقت ذاته إنصافا لنفسه أيضًا ، حيث ترى الشَّاعِر وهو ينصف أعداءه يبتعد عن الغلو في الصِّفات ، ويتجنَّب المُبالغة في الادعاءات .

اقرأ قوله وهو يصور كثرة القتلى على أرض المعركة في صفوف الفريقين :

بكَلِ قرارةٍ وبِكُلِّ ريعٍ ∴ بنَانُ فتىً وجُمجُمةٌ فَليقُ
وكمْ مِنْ سيدٍ منَا ومنْهُمْ ∴ بِذِي الطَرْفاءِ مَنطِقُهُ شَهيقُ
بكُلِّ مَجالةٍ غادَرْتُ حِزقاً ∴ مِنْ الفِتيانِ مَبسِمُهُ رَقيقُ(١)

وتأمَّل قوله أيضًا وهو يصور مقدرة الأعداء على إدراك ثأرهم مِن قومه :

فَتَلنَا الحارثَ الوضَّاحَ فيهِمْ ∴ فَخَرَّ كأنَّ لِمَّتَهُ العُذُوقُ
أصابَتْهُ رماحُ بنَي حُيىٍّ ∴ فَخَرَّ كأنَّهُ سيفٌ دَلُوقُ
وقدْ قتلُوا بهِ منَّا غُلاماً ∴ كَرِيماً لمْ تُؤشِّبهُ العُرُوقُ(٢)

(١) ينظر : ديوان الأصمعيات ص ٢٢٥ .
(٢) ينظر : ديوان الأصمعيات ص ٢٢٦ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كما أنصف العباس بن مرداس في سينيته أعداءه من خلال تصويره قدرتهم على ردع وصدّ ضربات أعدائهم ، كما أثبت لأعدائه مقدرتهم على القتل من خلال إقراره بوقوع القتل في صفوف قومه عندما اشتدَّ وطيس المعركة ، وتلاحم الفريقان .

وقد استلزم الإنصاف من العباس بن مرداس أسلوب الشَّرط خاصة ، وقد أحسن الشَّاعِر توظيفه في تصوير قدرة الأعداء على ردع وصد ضربات الأصحاب ، وجانبه الصواب عند إقراره بوقوع القتل في صفوف قومه عندما اشتد وطيس المعركة وتلاحم الفريقان وذلك في الموضع الثاني ، حيث آثر (إنْ) من بين أدوات الشرط التي تفيد أنَّ الشَّرط غير مقطوع بوقوعه ، وكان هذا سببا في ضَعْف مرتبة الإنصاف في هذا الموضع كما سترى .

جاء إنصاف العباس بن مرداس لأعدائه في القصيدة ، في موضعين :

الموضع الأول قوله :

إذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نَصَبُوا لهَا ∴ صُدُورَ المَذَاكِي والرِمَاحَ المَدَاعِسَا
إذَا الخيلُ جالَتْ عن صرِيعٍ نُكرُّهَا ∴ علَيهِمْ فمَا يَرْجِعنَ إلا عَوَابِسَا
نُطَاعِنُ عَنْ أحسابِنَا برِمَاحِنَا ∴ ونضرِبُهُمْ ضَرْبَ المُذِيدِ الخَوامِسَا
وكنْتُ أمَامَ القَومِ أوَّلَ ضَارِبٍ ∴ وطاعَنْتُ إذْ كَانَ الطِعَانُ تَخَالُسَا
فكَانَ شُهُودِي مَعبَدٌ ومُخَارِقٌ ∴ وبِشرٌ ومَا استشْهَدَتُ إلا الأكَائِسَا
مَعِي ابنَا صرِيمٍ دارعَانِ كلاهُمَا ∴ وعُروةُ لولاهُمْ لقيتُ الدَهَارِسَا (١)

(١) ينظر : ديوان العباس بن مرداس ص ٩٣ ، ٩٤ .

والموضع الآخر قوله :

فـإنْ يقتُلُـوا منَّـا كريمـاً فإنَّنَـا ∴ أبأنَـا بـهِ قـتلاً يُـذِلُّ المعَاطِسـا
فتَلْنَـا بـهِ في مُلتَقى الخيلِ خَمْسـةً ∴ وقَاتِلَـهُ زدنَـا مـعَ الليـلِ سادِسـا
وكُنَّـا إذَا مَـا الحـربُ شَّـبتْ نَشُـبُّهَا ∴ ونَضـرِبُ فيهَـا الأبلَـخَ المُتَقَاعِسـا
فأُبنَـا وأَبْقَـى طَعْنُنَـا مِـنْ رماحِنـا ∴ مَطـارِدَ خطِّـيٍّ وحُمـراً مَداعِسـا
وجُـرداً كـأنَّ الأُسـدَ فـوقَ مُتُونِهـا ∴ مِـنَ القَـومِ مرءُوسـاً وآخَـرَ رَائِسـا (١)

اتفقت معاني الإنصاف عند المُفَضَّل النُّكْرِيّ والعباس بن مرداس حينا فكان للموازنة حُضُورا بينا ، واختلفت حِينا آخرَ بأنْ كان لكلّ واحد منهما مَعانٍ انفرد بها عن صاحبه .

ثُمَّ إنَّ الإنصاف في منصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ له سمْت خاص به ، ومنحى مميز عن منحى العباس بن مرداس ، حيث ترى المُفَضَّل النُّكْرِيّ في قافيته يأخذ من وصف التكافؤ والتعادل بين الأصحاب والأعداء طريقا لتجسيد هذا المعنى .

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فتراه يأخذ حينا مِن وصف القوم الأعداء بمقدرة وإحسان التصدِّي لفعال الأصحاب سبيلا للإنصاف ، فيقف بالإنصاف عند مقدرة الأعداء على رد الفعل وصد هجوم الأصحاب ، وقد بدا ذلك واضحا في البيت الأول من الموضع الأول ،

وإنْ جاء في البيت الثاني من الموضع ذاته ، وقد أثبت للأعداء ــ على أحد التأويلين ــ مبادأة القتل والمقدرة على النيل مِن فرسان الأصحاب وصرعهم ، وهذا أمر يُمكِّن للبحث مِن زعم القول بأنَّ إنصاف المُفَضَّل

(١) ينظر : ديوان العباس بن مرداس ص ٩٤ ، ٩٥ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

النُّكْرِيّ لأعدائه أعمق وأكثر ثراء من إنصاف العباس بن مرداس ، وفيه تخلٍّ واضح عن التعصُّب القبليّ والطائفيّ ، وسيبدو ذلك بوضوح في تضاعيف التحليل البلاغي لأساليب الإنصاف عند الشَّاعِرين .

تأمَّل قول المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، وهو يصور مشهد القتلى عقب نزال الفريقين :

بكَلِ قرارةٍ وبِكُلِّ رَيعٍ ∴ بنَانُ فتىً وجُمجُمةٌ فَليقُ(١)
وكمْ مِنْ سيدٍ منَا ومِنْهُمْ ∴ بِذِي الطَرْفاءِ مَنطِقُهُ شَهيقُ(٢)
بكُلِّ مَجالةٍ غادَرْتُ خرقاً ∴ مِنْ الفِتيانِ مَبسِمُهُ رَقيقُ(٣)
فأشبَعْنَا السِباعَ وأشبعُوهَا ∴ فراحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ يَفوقُ
تركْنَا العُرج عاكفَةً عليهِمْ ∴ وللغربانِ مِنْ شَبعٍ نَغِيقُ
فأبكينَا نساءَهُمُ وأبكَوا ∴ نساءً مَا يَسوغُ لهُنَّ رِيقُ
يُجاوبنَ النِياحَ بكُلِّ فَجْرٍ ∴ فقَدْ صَحِلَتْ مِنْ النَوحِ الحُلُوقُ

---

(١) القَرارة والقَرارُ ما قَرَّ فيه الماء ، والقَرارُ والقَرارةُ من الأَرض المطمئن المستقرّ . ينظر : لسان العرب ــ مادة (قرر) .
ريع : الرِّيعُ والرَّيْع الطريق المُنْفَرِج عن الجبل عن الزَّجاج وفي الصحاح الطريق ولم يقيد .. وقوله تعالى أَتَبْنُون بكل رِيعٍ آية ، وقرئَ بكل رَيْع ، قيل في تفسيره : بكل مكان مرتفع ، قال الأَزهري : ومن ذلك : كم رَيْعُ أَرضك ؟ أي كم ارتفاع أَرضك ؟ . ينظر : لسان العرب ــ مادة (ريع) .
فليق : الفَلْق : الشق ، والفَلْق مصدر فَلَقَه يَفْلِقُه فَلْقاً شقه ... والفِلْق : القَضيب يُشَق باثنين فيعمل منه قوسان ، فيقال لكل واحدة فِلْقٌ ، والفَلْق : الشق ، يقال : مررت بحَرَّةٍ فيها فُلُوق ، أي : شقوق . ينظر : لسان العرب ــ مادة (فلق) .
(٢) ذو الطرفاء : اسم موضع .
(٣) مجالة : موضع الجولان ، يقال : لم يبق له مجال في هذا الأمر . ينظر المعجم الوسيط ــ مادة (جال) .
حزقا من الفتيان: (الحزقة) الجماعة من كل شيء ، والجمع حزق ، يقال تتابعوا كأنهم حزق الجراد . (الحزق) بالحاء ثم الزاي من الرجال : القصير الذي يقارب الخطو والسيء الخلق والبخيل . ينظر المعجم الوسيط ــ مادة (حزق) .

ابتداء تلمح الدِّراسة حضورا لافتا لضمير الجماعة (نا) المُشعر بالفخر والتعظيم في منصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، وقد وظفه غالبًا للحديث عن أصحابه خاصَّة ، كما في قوله من المنصفة : (وجئنا كسيل العرض ، مشينا شطرهم ، وقلنا اليوم ، رمينا في وجوههم برشق ، وجدنا السَّد رخراخا ، لقينا الجهم ثعلبة ، فألفينا الرماح ، وجاوزنا المنون ، فأشبعنا السباع ، تركنا العرج ، فأبكينا نساءهم ، قتلنا الحارث ، فأبقينا ولو شئنا تركنا ، وأنعمنا وأبأسنا عليهم ، لنا في كل أبيات) ، في حين وظف ضمير الغيبة في الغالب لأعدائه ، كما في قوله : (فجاءوا عارضا ، ومشوا إلينا ، وأشبعوها ، وقد قتلوا به ، فلما استيقنوا بالصبر) ، وهذا ابتداء يشي بأنَّ الإنصاف في المنصفة يبرق حينا ، ويخفت حينا آخر ، وأنَّ قافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، ومثلها سينية العباس بن مرداس ، لم تكن خالصة للإنصاف المطلق كما توهمنا ، ولعلَّ ذلك يرمز إلى أنَّ التعصُّب القبلي قابع في نفوس الجاهليين ، لم يفارقهم ولم يستطيعوا أنْ يتخلصوا منه كلية ، وإنْ أبدوا غيضا مِن الإنصاف في أشعارهم ، فلا تزال في نفوسهم بقيَّة باقِية منه .

فالمُفَضَّل النُّكْرِيّ في قوله :

بكَلِ قرارةٍ وبِكُلِّ رَيعٍ ∴ بنَانُ فتىً وجُمجُمةٌ فَليقُ

أبان عن وجود قتلى كثيرين في صفوف الفريقين : (الأصحاب والأعداء) فهو اعتراف يشي بتجرُّد الشَّاعِر عن الطَّائفية ، وقد اعتمد الأسلوب الخبري كما ترى أسلوبا من أساليب الإنصاف ، وتأمَّل الإحاطة والشمول في قوله : (بكَلِ قرارةٍ وبِكُلِّ رَيعٍ) التي أبرزت انتشار أشلاء القتلى من جماجم وأصابع وتفرُّقها في كلّ مكان مِن أرض المعركة ، سواء

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أكان منخفضا أم مرتفعا ، مع ما بين اللفظتين : (قرارة وريع) من تضاد يؤكِّد مُراد الشَّاعِر ومقصوده .

ثمَّ إنَّ المُفَضَّل النُّكْرِيّ قد استطرد في الحديث عن كثرة القتلى إلى تبيان صنف آخر من القتلى ، وهو صنف السَّادة الذين كانت لهم قيادة الحرب ، وتوجيه أفراد المُقاتلين المحاربين ، عند قوله :

وكمْ مِنْ سيدٍ منَا ومنْهُمْ ∴ بذِي الطَرْفاءِ مَنطِقُهُ شَهيقُ

فتراه يصف بعض القتلى بالسيادة ، التي من شأنها إثبات الشرف والعزة والإباء لهم ، وإبراز أنَّ القتل لم يقتصر على المحاربين فحسب ، بل امتد إلى السَّادة الذين كانت لهم قيادة الحرب والذين لهم منزلة عظيمة في نفوس المقاتلين ، ويلاحظ هنا أن المُفَضَّل قد اعتمد على كم الخبرية التي تشي بإبهام عدم القتلى في تصوير ذلك معتمدا إياها أسلوبًا رئيسًا من أساليب الإنصاف كما ترى .

وأمَّا قوله : (مَنطِقُهُ شَهيقُ) فهو كناية عن سرعة وقوع القتل بأولئك السادة ، وأنَّهم لفظوا أنفاسهم الأخيرة في مكان المعركة (ذِي الطَرْفاءِ) ، وهذا يشي أيضًا باشتداد وطيس المعركة وصعوبة اللقاء ، فلم تكن هناك مهلة للتداوي ، أو لمحادثة الأصحاب وتوديعهم .

وجاء قول المُفَضَّل النُّكْرِيّ :

بِكُلِّ مَجالةٍ غَادَرْتُ خَرْقًا ∴ مِنْ الفِتيانِ مَبسِمُهُ رَقيقُ

استطرادا في وصف كثرة قتلى الفريقين في أرض المعركة ، مبرزا أنَّ أرض المعركة حملت الكثير من القتلى من القادة وغيرهم ، منفردين أو مجتمعين ، فالمُفَضَّل النُّكْرِيّ هنا في هذا المشهد ينقل صورة بشعة لجماعة

من القتلى ضمتهم بقعة واحدة ، ويروى البيت : (بكل مجالة غادرت خرقا)، وفيه يصف الفرسان القتلى بحُسن الهيئة والطلعة ، وجميل الفعال وكريم الخلال ؛ إذ الخرق في اللغة " الظريف في سَماحة ونَجْدة ، تخرَّق في الكَرَم: اتَّسع، والخِرْقُ بالكسر : الكريم المُتَخرِّقُ في الكرَم ، وقيل هو الفَتى الكريم الخَليقةِ، والجمع أَخراقٌ ، ويقال هو يَتخرَّقُ في السخاء: إذا توسَّع فيه " (١)

وبالنظر الى الرِّوايتين مجتمعتين تتكامل الصُّورة ، وتتبدَّى ملامحها بشكل أوضح وأظهر وأبين ، حيث يريك الشَّاعِر مشهدا لقتل جماعي لعدد مِن الفتيان كَمُل خَلْقهم وخُلُقهم ، وفي هذا من المُبالغة في شأن شدَّة اللقاء ما لا يخفى .

وقوله: (مَبسِمُهُ رَقيقُ) كناية عن قرب حلول الموت بهم ؛ إذ إنَّ بروز الأسنان أو كلحها أحد الأوصاف الأولى الدَّالة على حُلُول الأجَل وقُربه .

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فلم يقف عند حكاية كثرة القتلى كما فعل معاصره المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، وإنَّما ركَّز على الضّراب والطِّعان، فقد وقف طويلا على أرض المعركة يحكي حوادثها ، ويراقب حال الفريقين، تأمَّل قوله :

إذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نصَبُوا لهَا ∴ صُدُورَ المَذَاكِي والرِماحَ المَداعِسَا
إذَا الخيلُ جالَتْ عن صرِيعٍ نُكرُّهَا ∴ عليهِمْ فمَا يَرْجِعنَ إلا عَوابِسَا
نُطَاعِنُ عَنْ أحسابِنَا برِمَاحِنَا ∴ ونضرِبُهُمْ ضَرْبَ المُذِيدِ الخَوامِسَا
وكنْتُ أمامَ القومِ أوَّلَ ضاربٍ ∴ وطاعَنْتُ إذْ كانَ الطِعانُ تَخالُسَا
فكانَ شُهُودِي مَعبدٌ ومُخَارِقٌ ∴ وبشرٌ ومَا استشْهَدَتُ إلا الأكَائِسَا(٢)

(١) ينظر : لسان العرب ــ مادة (خرق) .
(٢) ديوان العباس بن مرداس ص ٩٣ / ٩٤ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وكان إنصاف العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ حاضرا في أول مشهد ، حيث راح يصف شجاعة الأعداء في الثَّبات والتصدِّي والمواجهة عند قوله :

إذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نصَبُوا لهَا ∴ صُدُورَ المَذَاكِي والرِماحَ المَداعِسَا
إذَا الخيلُ جالَتْ عن صريعٍ نُكرُّهَا ∴ عليهِمْ فمَا يَرْجِعنَ إلا عَوابِسَا

والمعنى الذي يريده العباس بن مرداس رضي الله عنه ، وفيه ما فيه من الإنصاف للأعداء ، هو وصف تصدِّي الأعداء للأصحاب ، حيث يقول : " إذا حملنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ، ونصبوا صدور الخيل القرح ، والرّماح المُعدَّة لذلك ، والدّعس : الدفع في الأصل ، ثمَّ يستعمل في الطعن وشدة الوطء والجماع ، والذكاء : ضد الفتاء ، ويقال فرسٌ مذكٍ ، إذا تمَّ سنه ، وكمل قوته " (١)

وقد وظف العباس بن مرداس لمعنى الإنصاف هنا جملة من الوسائل البلاغية ، أبلغها ــ وهو الطَّريق الرَّئيس للإنصاف هنا ــ أسلوب الشرط الذي وظَّفه أكمل توظيف في وصف تكافؤ الفريقين في القتال ؛ إذ جعل للأعداء قوة تكافئ قوة الأصحاب ، حيث جعل جزاء الحمل على الأعداء نصب صدور الخيل والرماح ، فابن مرداس يريد أن يصف الأعداء بإفساد هجمات الأصحاب وإبطالها .

وبناء معنى الإنصاف في قالب الشرط والجزاء أبرز كمال تهيُّؤ الأعداء وفَرْط استعدادهم وبالغ تيقُّظهم ، إذ حكى أسلوب الشَّرط وحدة زمان فعل الشَّرط مع فعل الجواب ، فزمان الشدّ هو نفسه زمان النصب كما هو باد ، وكأنَّ الشَّد والنصب قد امتزجا حتَّى صارا ــ من شدة ارتباط أحدهما بالآخر ــ فعلا واحدا لا فعلين .

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ /٤٤١ ، ٤٤٢ .

هذا ، وقد كانت دِقَّة العباس بن مرداس في اختيار مفرداته وسيلة من وسائل الإنصاف ، حيث انتقى مفردات وأوصافا بلغت بأدوات حرب الأعداء حدّ التمام والكمال ، فوصف الخيل بالمذاكي في قوله : (صُدُورَ المذَاكِي والرِماحَ المَداعِسَا) مِن شأنه إبراز استتمام قوتها ، وأنَّها في أكمل أحوالها وأتمّ ؛ لأنَّ وصف الخيل بالذكاء هنا مراد منه تمام السِّنّ ، ففي اللسان : " قال الخليل : الذَّكاءُ في السنِّ : أَن يأْتي على قُرُوحه سَنَةٌ ، وذلك تمامُ اسْتِتْمامِ القُوَّة ، قال زهير : يُفَضّلُه إذا اجْتَهدُوا عليْهِ تمامُ السِّنِّ منه " (١)

كما أنَّ وصف الرِّماح بالمداعس مِن شأنه تصوير إحكام الرِّماح ومدى متانتها ، فهو وصف كمال يُنبئ عن قوَّتها في الطّعان ، ففي اللسان : " دَعَسَه بالرمح يَدْعَسُه دَعْساً : طعنه ، والمِدْعَسُ : الرمح يُدْعَسُ به ، وقيل المِدْعَسُ من الرماح : الغليظُ الشديدُ الذي لا ينثني ، ورمح مِدْعَسٌ والمَداعِسُ الصُّمُّ من الرماح " (٢) وهكذا استطاع الشَّاعِر بمعونة أسلوب الشَّرط ، ومفردات اللغة ، التي أحسن انتقاءها وتوظيفها أتمّ توظيف أن ينصف أعداءه بإظهار شجاعتهم ومحاسنهم في ميدان القتال .

هذا ، وفي قوله عقب الصُّورة السَّابقة :

إذَا الخيلُ جالَتْ عن صريعٍ نُكرُّهَا ∴ عليهِمْ فمَا يَرْجِعنَ إلا عَوابِسا

جاء الإنصاف عرضا من العباس بن مرداس في ثنايا فخر الشَّاعر بشجاعة قومه وبسالتهم ، إذ أثبت قدرة الأعداء على النيل مِن بعض فرسانهم وصرعهم ، فهو " يقول : إذا الخيل دارات عن مصروعٍ منا كررنا

---

(١) لسان العرب ــ مادة (ذكا)

(٢) لسان العرب ــ مادة (دعس)

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عليهم لنصرع منهم مثل ما صرعوا منا ، ويجوز أن يريد : إذا جالت الخيل عن صريعٍ منهم لا يقنعنا ذلك فيهم ، بل نكرها عليهم لمثله ، وإنْ كرهتْ الكرّ لشدَّة البأس ، فلم ترجع إلا كوالح " (١)

فهذه الصورة امتداد لصورة البيت السَّابق ، وقد جاء الإنصاف فيها في تضاعيف حديثه عن مقدرة قوم العباس بن مرداس على إدراك الثأر لمصْروعيهم ، ورد خيل الأعداء كالحة بسبب صعوبة لقائهم .

هذا ، وإذا اعتبرنا أنَّ مقصود الشَّاعر مِن البيت : " إذا جالت الخيل عن صريعٍ منهم لا يقنعنا ذلك فيهم ، بل نكرها عليهم لمثله ، وإن كرهتْ الكر لشدة البأس ، فلم ترجع إلا كوالح " (٢) فيكون البيت خالصا للفخر ، والنيل من الخصوم فحسب ، وليس من الإنصاف في شيء ، ومِمَّا يقوي ذلك استطراد الشَّاعر عقب هذا البيت في الفخر بشجاعته وشجاعة قومه ، فتراه يقول :

نُطَاعِنُ عَنْ أحسابِنَا برِمَاحِنَا ∴ ونضرِبُهُمْ ضَرْبَ المُذيدِ الخَوامِسا
وكنْتُ أمامَ القومِ أوَّلَ ضاربٍ ∴ وطاعَنْتُ إذْ كانَ الطعانُ تَخالُسا
فكانَ شُهُودِي مَعبدٌ ومُخَارقٌ ∴ وبشرٌ ومَا استشْهَدَتُ إلا الأكائِسا
مَعِي ابنَا صرِيمٍ دارعانِ كلاهُمَا ∴ وعُروةُ لولاهُمْ لقيتُ الدَهَارِسا
ومَارَسَ زيدٌ ثمّ أقصَرَ مُهرُهُ ∴ وحُقَّ لَهُ في مِثلِهَا أنْ يُمارِسا
وقُرَّةُ يحمِيهِمْ إذا مَا تبدَّدُوا ∴ ويَطعَنُهُمْ شَزراً فأَبْرحْتَ فَارِسا
ولكنَّهُمْ في الفارسيِّ فلا يُرَى ∴ مِنَ القومِ إلا في المُضَاعَفِ لابِسا (٣)

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ / ٤٤٢
(٢) السابق ١ / ٤٤٢
(٣) الفارسي : يعني الدروع . ينظر حاشية الديوان ص ٩٤ . المُضاعَفةُ : الدِّرْع التي ضُوعِفَ حَلَقُها، ونُسِجَتْ حَلْقَتَيْن حلقتين . ينظر : لسان العرب ــ مادة (ضعف) .

وفي تضاعيف هذا الفخر الخالص قد يشتم مدح الخصوم والاعتراف بشجاعتهم وبسالتهم ، فقوله : (وطاعَنْتُ إذْ كانَ الطِعانُ تَخالُسا) يشي بتكافؤ الفريقين في محاولة النيل من الآخر ، فهو وصف يُنبئ عن شدة الحذر ، وتحيُّن الفرص ، وهو في الوقت ذاته أمارة على الحنكة وطول الدربة ، ففي الوصف لون مِن ألوان الإنصاف ، يقول ابن منظور : " الخُلْسَة بالضم النُّهْزَةُ ، يقال الفُرْصَةُ خُلْسَةٌ ، والفِرْنانِ إذا تبارزا يَتَخالسان أَنفسَهما يُناهِزُ كلٌّ واحد منهما قَتْل صاحبه ، الخَلْسُ في القتال والصِّراع ، وهو رجل مُخالِسٌ أَي شجاع حَذِرٌ ، وتَخالسَ القِرْنانِ ، وتخالَسا نَفْسَيْهما رام كلٌّ واحد منهما اخْتِلاسَ صاحبه " [١]

وفي قوله وهو يتحدَّث عن بعض رجالات قومه الشّجعان :

مَعي ابنَا صرِيمٍ دارعانِ كلاهُمَا ∴ وعُروةُ لولاهُمْ لقيتُ الدَهَارِسا

يُلمَح وصف الأعداء بشدة البأس ، وقوة الفتك ، وصعوبة اللقاء ، وأنَّ لقاءهم يحتاج إلى فرسان شجعان أحسنوا التَّأهُّب والتحفُّز ، ومِن ثَمَّ ترى الشَّاعِر في قوله : (لولاهُمْ لقيتُ الدَهَارِسا) قد آثر من المفردات ما من شأنه المبالغة في وصف حال الأعداء ، وهو لفظ الدهارس ، فالدهارس جمع الدهرس ، ومعناه الداهية [٢] ، فالمفردات فضلا عن الأساليب يوظّفها العباس بن مرداس لتحقيق مراده ، وهو الإنصاف ، كما ترى .

****

(١) لسان العرب ــ مادة (خلس)

(٢) ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مُرتضى الزَّبِيدي ــ تحقيق التُرزي وحجازي والطحاوي والعزباوي ــ راجعه : عبد الستار أحمد فراج ــ مادة (دهرس) ١٦ / ٩٨ ــ ط : حكومة الكويت ــ ١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومن الإنصاف في سينية العباس بن مرداس : إقراره بحصول القتل في صفوف أصحابه عند قوله :

فإنْ يقتُلُوا منَّا كريماً فإنَّنَا ∴ أبأنَا بهِ قَتْلا يُذِلُّ المعَاطِسا(١)
قتَلْنَا بهِ في مُلتَقى الخيلِ خَمْسةً ∴ وقَاتِلَهُ زدنَا معَ الليلِ سادِسا
وكُنَّا إذَا مَا الحربُ شَّبتْ نَشُبُّهَا ∴ ونَضرِبُ فيهَا الأبلَخَ المُتَقَاعِسا(٢)

وهنا ترى الشَّاعِر وظف أسلوب الشرط في قوله : (فإنْ يقتُلُوا منَّا كريماً) لتحقيق الإنصاف ، حيث اعترف بحدوث قتل الكرام في صفوف الأصحاب ، وكان إيثار الشَّاعِر لأداة الشرط (إنْ) التي يكون الشرط فيها غير مقطوع بوقوعه سببا في ضعف مرتبة الإنصاف هنا ، ولاسيَّما أنَّ جواب الشَّرط : (فإنَّنَا أبأنَا بهِ قتلا يُذِلُّ المعَاطِسا) أفاد الثأر من مكافئ القاتل مع التنكيل ، وتأمَّل هنا ترَ الجواب جملة اسمية مؤكَّدة بـ (إن) والتأكيد هنا يترجم انفعال الشَّاعِر بأمر الثأر ، وامتلاء نفسه غيظا وغضبا على أعدائه ، وقد جاء المفعول به في جملة المُسنَد (قتلا) نكرة للتعظيم والتفخيم والتهويل ، وتبعه الوصف المخصص لحاله : (يُذِلُّ المعَاطِسا) فهو قتل غير معهود ؛ لأنَّه قتل يورث الذّلة لما فيه من هوان ، حيث إنَّ " الأنف عند العرب ميزان الكرامة ، في ارتفاعه شمم وإباء ، وفي انتكاسه

(١) البَواءُ في القَوَد تقول : اقتل هذا بقتيلك ، فإنه بَواءٌ به أي : هو يُعادلُه في الكفاءة . ينظر : العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ــ مادة (بوا) .
المعطس : الأنف ، والجمع معاطس . ينظر : المعجم الوسيط ــ مادة (عطس) .
(٢) ونَضرِبُ فيهَا الأبلَخَ المُتَقَاعِسا : البَلَخُ مصدر الأَبْلَخ ، وهو العظيم في نفسه الجَريء على ما أَتى من الفجور والمرأة بَلْخاء والبَلَخُ التكبر . ينظر : لسان العرب ــ مادة (بلخ) .
المتقاعس : في اللسان : رجل أَقْعَس ثابت عزيزٌ مَنِيع ، وتَقَاعس العِزّ أَي ثبت وامتنع ولم يُطَأْطِئْ رأْسه . ينظر : لسان العرب ــ مادة (قعس) .

ورغمه ذل وإهانة ، وقتل هؤلاء الأشراف يرغم أنوف الأعداء ويذل كرامتهم "[١] ، ففي الوصف (يُذِلُّ المعَاطِسا) من تفظيع شأن القتل وتقبيحه ما لا يخفى ، إذ إنَّ كلام الشَّاعِرِ قد تمَّ عند قوله : (فإنَّنَا أبأنَا بهِ قتلا) ، فأوغل بالوصف المخصص لحقيقة القتل : (يُذِلُّ المعَاطِسا) للإشارة إلى شدة القتل وقُبْحه .

بل تراه راح عقب البيت يستطرد في وصف التنكيل بالأعداء ، والمبالغة في الثأر ، وكيف أنَّ قومه قتلوا ستة مِن أشراف أعدائهم ، خمسة في ميدان القتال ، وسادسهم القاتل ، في قوله :

قَتَلْنَا بهِ في مُلتَقى الخيلِ خَمْسةً ∴ وقَاتِلَهُ زدنَا معَ الليلِ سادِسا
وكُنَّا إذَا مَا الحربُ شَّبتْ نَشُبُّهَا ∴ ونَضرِبُ فيهَا الأبلَخَ المُتَقَاعِسا

هذا ، والإقرار بحصول القتل في صفوف الأصحاب تجده أيضًا في قافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ عند قوله :

قَتَلنَا الحارثَ الوضَّاحَ فيهِمْ ∴ فَخَرَّ كأنَّ لِمَّتَهُ العُذُوقُ
أصابَتْهُ رماحُ بنَي حُيَيٍّ ∴ فَخَرَّ كأنَّهُ سيفٌ دَلُوقُ
وقدْ قتلُوا بهِ منَّا غُلاماً ∴ كَرِيماً لمْ تُؤشِّبهُ العُرُوقُ (٢)

---

(١) ينظر : شرح الأصمعيات ــ دكتور : سعدي ضناوي ص ٢٧٥ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ من دون تاريخ .

(٢) ينظر : ديوان الأصمعيات ص ٢٢٦ .

قتلنا الحارث الوضاح فيهم : رجل وَضَّاحٌ حَسَنُ الوجه أَبيضُ بَسَّامٌ ، والوَضَّاحُ الرجلُ الأَبيضُ اللون الحَسَنُه . ينظر : لسان العرب ــ مادة (وضح) .

كأن لمته العذوق : اللِّمّة شعر الرأْس بالكسر إذا كان فوق الوَفْرة ، وفي الصحاح يُجاوز شحمة الأُذن ، فإذا بلغت المنكبين فهي جُمّة ، واللِّمّة الوَفْرة ، وقيل : فوقَها وقيل : إذا أَلَمّ الشعرُ بالمنكب فهو لِمّة، وقيل : إذا جاوزَ شحمة الأُذن ، وقيل : هو دون الجُمّة ، وقيل أَكثرُ منها ، والجمع لِمَمٌ ولِمامٌ . ينظر : لسان العرب ــ مادة (لمم) . =

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فالنَّاظر هنا يرى أنَّ المُفَضَّل النُّكْرِيّ حكى قتل أصحابه لأحد فرسان أعدائه وهو (الحارث الوضاح) ، وتراه قد اعتمد على صورتين بيانيتين في توضيح حاله :

الأولى : صورة التشبيه ، وغرضه منها تقبيح المشبه ، وتشويه صورته ، عند قوله : (فَخَرَّ كأنَّ لِمَّتَهُ العُذُوقُ) حيث شبَّه لمة القتيل بالعرْجون المُشتمل على الشَّماريخ ، والجامع الوفرة والخشونة والتجعيد في كلّ ، ولتأكيد الحكم بالتشابه وتبيان فرط الشبه بينهما آثر الشَّاعِر أداة التشبيه (كأنَّ) ، واستحضار العرجون مشبها به أغرب بالتشبيه بعيدا عن الابتذال ؛ إذ يندر حضور صورة العراجين في الذهن عند استحضار صورة الشعر الكثيف الخشن .

هذا ، ومقصود المُفَضَّل النُّكْرِيّ من وصف القتيل بلفظ : (الوضاح) في قوله : (قَتَلنَا الحارثَ الوضَّاحَ فيهِمْ) إبراز أنَّ القتيل من خِيار قومه ، ففي الوصف إشارة إلى أنَّ مثله يُحزن لقتله ، وفي هذا من تعظيم شأن القتل ، وتبيان شجاعة قوم المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، وأنَّهم يختارون أحاسن الرجال ما لا يخفى .

= العذوق : العَذْق بالفتح النخلة ، وبالكسر العَرْجون بما فيه من الشماريخ ، ويجمع على عِذاق .. والعِذْق القِنْوُ من النخل ، والعنقود من العنب ، وجمعه أَعْذاقٌ وعُذوق . ينظر : لسان العرب ــ مادة (عذق) .

سيف دلوق : يقال : دَلَق السيفُ من غِمْده إذا سقط وخرج من غير أن يُسَلَّ ، وأنشد : كالسيْفِ من جَفْنِ السِّلاح الدَّالِق ، ابن سيده دَلَق السيفُ ممن غِمده دَلْقاً ودُلوقاً وانْدلَق كلاهما استرْخى وخرج سريعاً من غير اسْتِلال . ينظر : لسان العرب ــ مادة (دلق) .

كريما لم تؤشبه العروق : يريد أن أصوله خالصة ، ليس فيها دخيل . أي لم تختلط فيه عروق رديئة . ينظر : حاشية ديوان الأصمعيات ص ٢٢٧ .

الأخرى : صورة التشبيه أيضًا عند قوله :

أصـــابَتْهُ رمـــاحُ بنَـــي حُيـــيٍّ ∴ فَخَـــرَّ كأنَّـــهُ ســـيفٌ دَلُـــوقُ

وغرض الشَّاعِرِ من الصورة التشبيهية تبيان فرط شجاعة القوم وشدة بأسهم ، حيثُ شبه القتيل ساعة سقوطه على أيدي قومـــه بالســـيف الـــذي يسقط من غمده من غير أن يُسل ، والجامع عدم الثبات وسُـــرعة الســـقوط وسلاسة التهاوي في كُل ، والغرض تقبيح المشبه وتشويهه أيضا .

ثمَّ يأتي قول المُفَضَّل النُّكْرِيّ :

وقـــدْ قتلُـــوا بـــهِ منَّـــا غُلامـــاً ∴ كَرِيمـــاً لمْ تُؤشِّـــبهُ العُـــرُوقُ

ليجسِّد الإنصاف في أكمل صوره ، وأنبل أحواله ، وأتمّ معانيه ، حيث تراه يعترف لأعدائه بالشجاعة وشدَّة البأس ، وكذا العزة والانتصاف وإدراك ثأر قتيلهم (الحارث) ، فـــ " ما أعجب أمر العرب ، تأمر بـــالحلم مـــرةً ، والصبر والكظم مرة ، وتحثّ بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثـــأر ، وتـــذم السَّفه وقمع العدو ! وهكذا شأنها في جميع الأخلاق ؛ أعني أنَّها ربما حضت على القناعة والصبر والرضا بالميسور ، وربما خالفت هذا ، فأخذت تـــذكر أنَّ ذلك فسالةٌ ونقصان همةٍ ولين عريكةٍ ومهانة نفس ؛ وكذلك أيضًا تحـــث على البسالة والإقدام والانتصار والحمية والجسارة ؛ وربمـــا عـــدلت إلـــى أضداد هذه الأخلاق والسجايا والضرائب والأحوال ؛ في أوقاتٍ يحسن فيهـــا بعضها ، ويقبح بعضها ، ويعذر صاحبها في بعضها ، ويلام في بعضـــها ؛ وذلك لأنَّ الطبائع مختلفة ، والغرائز متعادية ... وليس في جميع الأخـــلاق شيءٌ يحسن في كل زمانٍ ، وفي كل مكانٍ ، ومع كل إنسان ، بل لكل ذلـــك وقتٌ وحينٌ وأوان " [١]

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ــ راجعه : هيثم خليفـــة الطعيمـــي ــ ٣ / ٣٤٤ ــ ط : المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ــ ١٤٣٢ ه ــ ٢٠١١ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هذا ، والطريق الذي آثره المُفَضَّل النُّكْرِيّ هنا لتحقيق معاني الإنصاف هذه هو الأسلوب الخبري الذي يفيد التكافُؤ والتعادُل والتماثُل بين فريق الأصحاب وفريق الأعداء ، حيث ترى المُفَضَّل هنا قد أعاد لفظة القتل في قوله : (وقدْ قتلُوا بهِ) التي ذكرها مع أصحابه عند قوله : (قَتَلنَا الحارثَ الوضَّاحَ) ، وتلحظ الدراسة هنا في أسلوب الإنصاف للمفضل النُّكْرِيّ عدة أمور جعلت إنصافه أتمّ وأكمل من إنصاف صَاحبه العباس بن مرداس ، فالمُفَضَّل النُّكْرِيّ وضع المعنى في قالب الخبر الذي يشي بتحقُّق الفعل ، أمَّا العباس بن مرداس فرماه في قالب الشَّرط المصدر بـ (إنْ) التي يكون الشرط بها غير مقطوع بوقوعه : (فإنْ يقتُلُوا مِنَّا كريماً) ، ثمَّ إنَّ المُفَضَّل صاغ خبره مؤكَّدا بقد التي تدل على تحقُّق القتل وتؤكّده ، وهذا ما عري منه قول صاحبه العباس بن مرداس الذي أورد معناه على طريقة الأمر المشكوك حصوله ، ثمَّ إنَّ المُفَضَّل النُّكْرِيّ قد أضفى على خصمه من جميل الخلال ما لم يتوفَّر في قول صاحبه العباس ، فالمُفَضَّل نعت خصمه بطريق الكناية في قوله : (غلاما كَرِيماً لمْ تُؤشِّبهُ العُرُوقُ) مبرزا كرمه وعراقة أصله وسلامة نسبه ، أمَّا العباس بن مرداس فاقتصر على الوصف بالكرم في قوله : (فإنْ يقتُلُوا مِنَّا كريماً) .

كذلك يتبدَّى كمال إنصاف المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، وضعف إنصاف معاصره العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه وجمعنا معه ومن نحب في زمرة سيد المرسلين ــ في حكاية فعل الأصحاب من قوم الشَّاعِرين ، فقوم المُفَضَّل النُّكْرِيّ مَن بادءوا الأعداء بقتل فارسهم (الحارث الوضاح) ، ومِن ثمَّ كان فعل الأعداء فعل المنتصف المدرك لثأره ، فمِمَّا يُحمد للمفضل النُّكْرِيّ هنا إيثاره حرف الجار (الباء) في قوله : (وقدْ قتلُوا بهِ) الدال على معنى

البدل ، أو السببية ، ليكون تأويل كلامه أنَّهم قتلوا بدله ، أو قتلوا بسبب قتله غلاما ، والضمير راجع إلى الحارث الوضاح ، فالباء أفادت مِن وجه عزَّة القوم وانتصافهم ، وأفادت مِن وجه آخر وصف القوم بعدم الاعتداء والإغارة على الغير ، وأنَّ ما حدث منهم مِن قتل كان ضربا من مكافأة الخصوم ، وفي هذا من الإنصاف ما فيه .

أمَّا قوم العباس بن مرداس فحكى عنهم ما لا ترتضيه النفوس الكريمة المعتدلة السمحة ، حيث حكى عنهم ــ كما أسلفنا ــ إسرافهم في القتل والتنكيل بالأعداء ، ولاسيَّما الشّجعان المشهود لهم بالعزَّة والإباء ، وهو ما صوَّره قوله :

فَإنْ يقتُلُوا مِنَّا كَرِيماً فإنَّنَا ∴ أبأنَا بِهِ قتلاً يُذِلُّ المَعَاطِسَا
فتَلْنَا بِهِ في مُلتَقى الخيلِ خَمْسةً ∴ وقَاتِلَهُ زدنَا مَعَ الليلِ سادِسَا
وكُنَّا إذَا مَا الحربُ شَّبتْ نَشُبُّهَا ∴ ونَضرِبُ فيهَا الأبلَخَ المُتَقَاعِسَا

فالمُفَضَّل النُّكْرِيّ بدا في هذا المشهد أقرب إلى الاعتدال والإنصاف من صاحبه .

فالمُلاحظ هنا أنَّ إنصاف سينية العباس بن مرداس للأعداء باهت ، لا تكاد تظهر له ملامح واضحة ، فهو بين إنصاف موجز ، أو عارض يُشتم في ثنايا الفخر وبين تضاعيفه ، رغم شُهرة المُنْصِفَة البعيدة في هذا الباب ، فالناظر يرى الفخر والاحتفاء بالنفس والأصحاب واضحينِ ، حتَّى لو قال قائل : إنَّ غرض السِّينية الأظهر والأبين هو الفخر بالنَّفس والأصحاب لم يُبْعد كثيرا .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هذا ، ولا يزال العباس بن مرداس يستقبل الفخر في ختام القصيدة قائلا :

فأُبنَا وأَبْقَى طَعْنُنَا مِنْ رماحِنا ∴ مَطارِدَ خطِّيٍّ وحُمراً مَداعِسا(١)
وجُرداً كأنَّ الأُسدَ فوقَ مُتُونِها ∴ مِنَ القَومِ مرءُوساً وآخَرَ رَائِسا

فالبيت الأول ــ كما ترى ــ يحكي أنَّ قومه استنفذوا رماحهم جميعها، فلم يتبقَّ معهم سوى بقايا مِن تلك الرِّماح المتينة المميتة .

وفي البيت الثاني يصف جميع فرسان قومه فوق ظهور تلك الخيول القصيرة الشعر بالأُسْد جرأة وشجاعة ، سواء أكانوا رؤساء أي : قادة ، أم مرءوسين أي : مقاتلين ، ففي البيت : (مِنَ القَومِ مرءُوساً وآخَرَ رَائِسا) تقسيم حسن ، واستقصاء بديع .

في حين يرى أبو عبيدة في قول العباس :

وجُرداً كأنَّ الأُسدَ فوقَ مُتُونِها ∴ مِنَ القَومِ مرءُوساً وآخَرَ رَائِسا

لونا من الإنصاف وهو تعادُل الفريقين في الضَّرب ، وأنَّ كلا من الفريقين ضارب ومضروب ، حيث يقول : " المرءوس : المضروب على رأسه ، والرائس : الضارب ، أي : قد أصبنا وأصيب منا ، وضَربنا وضُربنا، قال : ولا يقال للرَّئيس مِن القوم رائس ، إنَّما يقال في الكلاب خاصَّة رائس " (٢)

---

(١) مطارد : بقايا ما يتبقى من الرماح إذا تكسرت ، والباقي يكون في جسد الأعداء . خطي : رمح مصنوع في الخط ، وهو من أجود الرماح . الحمر المداعس : الرماح المميتة ؛ لأن الأحمر لون الموت ، أو هي حمراء من الدماء. ينظر : شرح الأصمعيات ــ دكتور/ سعدي ضناوي ص ٢٧٦ .

(٢) كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر (٢٣٥ ــ ٣١٥) ــ تح : د / فخر الدين قباوة ص ٧٤٠ ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٧٤ م .

أمَّا صاحبه المُفَضَّل النُّكْرِيّ فختم قافيته بحكاية الصفح ، والعفو عن مقدرة ، والتسامُح ، وإطلاق سراح الأسرى ، وإقامة الصُّلح بينه وبين أعدائه ، وهذا يشي بكرم الأخلاق ، وجميل الخلال ، وإنْ كان يُشتم فيه الفخر ، تأمَّل قوله :

فلمَّا استيقَنُوا بالصبرِ منَّا ∴ تذكَّرَتِ العشائرُ والحَزِيقُ(١)

فأبقيْنَا ولوْ شِئنَا تركْنَا ∴ لُجَيماً لاتقُودُ ولا تَسُوقُ

وأنعمْنَا وابْأَسْنَا عليهِمْ ∴ لَنَا في كُلِّ أبياتٍ طَلِيقُ

فلعلَّ حكاية الصَّفح والعفو في خاتمة قافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ أقرب إلى الإنصاف مِن استقبال الفخر في سِينية العباس بن مرداس ، وأوقع . والله تعالى أعلم بالصواب ..

****

(١) الحزيق والحزيقة والحزاقة : الجماعة والجمع الحزائق والظاهر أنه بمعنى الجماعة مطلقا لا بمعنى جماعة الأبل . ينظر : خزانة الأدب ٥ / ٤٠٣ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الثالث : الإنصاف وأساليبه في تصوير إشباع السّباع من جُثث القتلى .

لَمَّا كان غرض الشَّاعِرين الرَّئيس في هذا المبحث هو تصوير حال السِّباع عقب تلاقي الفريقين في ميدان المعركة وجدنا المُفَضَّل النُّكْرِيّ يجنح إلى الأسلوب الخبري خاصَّة ؛ لأنَّه أوفق بناء يجسِّد مُراد الشَّاعِر في تصوير التكافؤ والتعادُل الذي يُجسِّد الإنصاف في أكمل أحواله وأتمّها .

أمَّا صاحبه العباس بن مرداس فوظَّف أسلوب الشَّرط الدَّالّ على امتناع حصول الجواب لامتناع حصول الشرط لتصوير كثرة القتلى الناتجة عن بالغ جراح الأعداء ، فقد جاء الحديث عن حال السباع عرضا في ثنايا الفخر .

وقد أصاب الشَّاعِر في إيثار ذلك الأسلوب ؛ لأنَّه حقَّق غرض الشَّاعِر الرَّئيس ــ وهو الفخر بكثرة الضرب والطعن ــ أتمّ تحقيق .

حكى المُفَضَّل النُّكْرِيّ حال السباع في قافيته عند قوله :

فأشبَعْنَا السِباعَ وأشبعُوهَا ∴ فراحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ يَفُوقُ (١)

تركْنَا العُرج عاكفَةً عليهِمْ ∴ وللغربانِ مِنْ شَبعٍ نَغِيقُ (٢)

بينما حكى العباس بن مرداس حال السِّباع في قوله :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

ولكنَّهُمْ في الفارسيِّ فلا يُرَى ∴ مِنَ القومِ إلا في المُضَاعَفِ لابِسا

---

(١) تئق الوعاء و نحوه تأقا : امتلأ ، ويقال تئق فلان : إذا امتلأ شبعا أو ريا أو فرحا أو حزنا أو غضبا أو شرا . ينظر : المعجم الوسيط ــ مادة (تئق) . يفوق : فلان يَفُوق بنفسه فُوَوقاً إذا كانت نفسه على الخروج مثل يَرِيقُ بنفسه ، وفَاقَ بنفسه يَفُوق عند الموت فَوقاً وفُؤوقاً جاد ، وقيل مات ، ابن الأعرابي الفَوْق : نفس الموت . ينظر : لسان العرب ــ مادة (فوق) .
وفي حاشية تاريخ الأدب العربي ــ العصر الجاهلي لغازي طليمات ص ١٥٠ : يفوق : يتجشأ ، والجشأ: ريح ترتفع من المعدة .

(٢) العرج: الضباع، النغيق: صوت الغربان. ينظر: حاشية رقم١ في: ديوان الأصمعيات ص٢٢٦ .

جاء قول المُفَضَّل النُّكْرِيّ تتمة لمشهد القتلى ، حيث أثبت مكافأة الأعداء للأصحاب في كثرة القتلى ، مِن خلال تكافؤ الفريقين في إشباع السِّباع من جثث قتلى الفريق الآخر ، ووظف لذلك الأسلوب الخبري ، ووضعه في قالب التقابل أو التكافؤ من خلال إيثار لفظة واحدة المبنى والمعنى تصف حال الفريقين : (أشبعنا ، أشبعوها)

وجاء قوله :

..... ∴ فراحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ يَفُوقُ

تركْنَا العُرج عاكفَةً عليهِمْ ∴ وللغربانِ مِنْ شَبعٍ نَغِيقُ

استطرادا في وصف السباع والضباع والغربان لإفادة المبالغة في شبع تلك الحيوانات من جثث القتلى ، فالسِّباع تكاد تموت تخمة ، والضباع عاكفة مقيمة لا تبرح مكانها ، والغربان تصيح من فرط الشَّبع والامتلاء ، وحين تتأمَّل قوله : (وللغربانِ مِنْ شَبعٍ نَغِيقُ) تجد المُفَضَّل النُّكْرِيّ قدَّم المسند على المسند إليه لإفادة العناية والاهتمام ، ونكر المسند إليه لتفخيم النغيق وتعظيمه ، أو لإفادة النوعية ، وذلك بإبراز أنَّ نغيق تلك الغربان من نوع خاص ألا وهو نغيق الشَّبع ، ولذا رأيت المُفَضَّل النُّكْرِيّ يحترس بقوله : (من شبع) لئلا يسبق إلى الأذهان أنَّ النغيق كان بسبب مكروه أصابها ، وخصّ النَّغيق ؛ لأنَّه يكون في الخير ، ففي مجمع الأمثال : " يقال : نَغَقَ الغرابُ نَغِيقا ، إذا قال : غيق غيق ، فيقال عندها : نغق بخير ، ويقال : نَعَبَ نَعيبا ، إذا قال : غاق غاق ، فيقال عندها : نَعَبَ بشر" [(١)] فهكذا يتبين أثر الألفاظ الواضح في تحقيق مراد الشَّاعر ومقصوده .

(١) مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني ــ قدم له وعلق عليه : نعيم حسين زرزور ١ / ٤٨٤ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثالثة ــ ٢٠١٠ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فقد أثبت لأعدائه في قوله :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

ولكنَّهُمْ في الفارسيِّ فلا يُرَى ∴ مِنَ القومِ إلا في المُضَاعَفِ لابِسا

حُسْن التَّأهُّب والتحفُّز ، فتراه هنا يحكي ــ في تضاعيف الحديث عن شجاعة قومه [١] وكثرة ضرباتهم ــ عن هيئتهم ، وأبرز كيف كانت تلك الدروع التي لبسوها سبيل نجاتهم وواقيا وحافظا لهم من بطش قومه، فالوسائل البلاغية التي وُظِّفَت هنا لتحقيق الإنصاف تُجْمل في أسلوب الاستدراك عند قوله : (ولكنَّهُمْ في الفارسيِّ) ، وأسلوب القصر في قوله : (فلا يُرَى مِنَ القومِ إلا في المُضَاعَفِ لابِسا) فالأول أبرز كيف انطبعت تلك الدُّروع على هؤلاء الفرسان ، وهذا يشي بفرط الحذر والتوقّي كما أسلفنا ، ويُنبئ عن بالغ نجاتهم ، وأنَّ قوم العباس لم يتمكَّنوا مِن قتلهم ، أو النيل منهم .

وأمَّا أسلوب القصر : (فلا يُرَى مِنَ القومِ إلا في المُضَاعَفِ لابِسا) فأفاد مبالغة الأعداء في شدّة التَّوقّي وفرط الصِّيانة مِن خلسة قوم الشَّاعر ولاسيَّما أنَّ كلا الفريقين يروم اختِلاس صاحبه والفتك به .

---

(١) في ظني أن المعنى الذي ذكره الشَّاعِر في جاهليته عند قوله :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

قبيح ومنكور لاشتماله على ما تعاف النفس الكريمة سماعه ، فهو ــ رضي الله عنه ــ يريد أن يقول : لو أن جميع من أصبناهم وجرحناهم لقوا حتفهم لأمكن للضباع في نواحي الأراك أن يجدن عرسانا لهن جميعا ... متكئا على القول : بأن القتيل إذا مات فانتفخ ذكره تقعد عليه الضباع ، فيكون عريسها لتلك الليلة ، قبل أن تأكل جيفته . ينظر : شرح الأصمعيات ص ٢٧٥ .

فالصورة ساذجة ارتبطت بخرافة جاهلية . ينظر : القصائد المنصفات ــ دراسة موضوعية فنية ــ د / فتحي عبد المحسن محمد ص ٢١٠ ــ مجلة كلية التربية ــ جامعة عين شمس ــ المجلد السابع ــ العدد الثالث .

ومن دقيق التعبير هنا : اتكاء العباس بن مرداس على الوصف دون الاسم في التعبير عن الدروع ، فتراه مرة في قوله : (في الفارسي) يذكر الدروع بنسبتها إلى صانعيها ، وتراه أخرى يذكر الدروع بالوصف الذي يبرز طريقة نسجها : (في المُضَاعَفِ لابِسا) ، والوصفان يبرزان كمال الدروع في النَّسج والصَّقل .

هذا ، والبيتان :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

ولكنَّهُمْ في الفارسيِّ فلا يُرَى ∴ مِنَ القومِ إلا في المُضَاعَفِ لابِسا

يحملان في ثنايا الفخر كذلك شيئا من الحسرة والتوجع على عدم الفتك بأولئك الأعداء ، ويبرزان أماني النَّفس المستورة ورغباتها المكبوتة ، وميل الشَّاعر ــ رضي الله عنه ــ لفرسان قبيلته والثَّناء عليهم ، فلم يجعل الأصحاب والأعداء مُتساوينِ مُتكافئينِ ، كما فعل صاحبه المُفَضَّل النُّكْرِيّ .

وفي قول العباس بن مرداس رضي الله عنه :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

تجده قد استدعى ذكر السِّباع الضارية في ميدان المعركة ، كما استدعاها المُفَضَّل النُّكْرِيّ في قوله :

فأشبَعْنَا السباعَ وأشبعُوهَا ∴ فراحَتْ كُلُّهَا تَئِقٌ يَفُوقُ

تركْنَا العُرج عاكفَةً عليهِمْ ∴ وللغربانِ مِنْ شَبعٍ نَغِيقُ

وهنا أقف لأبيِّن أنَّ ذكر السِّباع والضِّباع وتصوير حالها مِن الشَّبع والرِّضا والسُّرور على جثث القتلى في قافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ أتمّ وأوقع من ذكر الضِّباع وتصوير فرحها وسرورها في سِينية العباس بن مرداس ؛ لأنَّ دافع السُّرور في كلتا الصورتين مُختلف ، حيث ترى المُفَضَّل النُّكْرِيّ قد جعل

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

سبب الرِّضا والسرور الرئيس هو الأكل والشَّبع من لُحُوم القتلى ، في حين رأيت العباس بن مرداس يجعل ظفر الضباع بعرسان لهن في ليلة القتل الغرض الأهمّ والسبب الرَّئيس للرضا والسُّرور ، ففرحة الجائع بالطعام أتمّ وأكمل مِن غيرها ؛ لأنَّ الأكل والشراب أساس الحياة ، ودليل البقاء ، ولاسيَّما أنَّ صُورة المُفَضَّل النُّكْرِيّ قد اشتملت على أمارات الرِّضا ودلالات السرور ، فالسِّباع تكاد تموت تخْمة من فرْط الأكل ، والضِّباع عاكفة مقيمة لا تبرح مكانها ، والغربان تصيح مِن فرط الشَّبع والامتلاء .

كما أنَّ معنى صورة العباس بن مرداس مبتذل قبيح ، يعتمد على ما حكاه الجاحظ عن اليقطري : " قال اليقطري : وإذا بقي القتيلُ بالعراء انتفخ أيره ؛ لأنّه إذا ضربت عنقه يكون منبطحاً على وجهه ، فإذا انتفخ انقلب ، فعند ذلك تجيء الضّبع فتركبُه ، فتقضي حاجتها ، ثمَّ تأكله " [(١)] ، فالظاهر أنَّها اعتقادات تحتمل الخطأ والصواب .

ثمَّ إنَّ صورة المُفَضَّل النُّكْرِيّ قد صوَّرت فرحة السِّباع جميعها بجثث القتلى ، في حين اقتصرت صورة العباس بن مرداس على تصوير فرحة الضباع فحسب ، وهذا يشي أنَّ فرحة سِباع المُفَضَّل أكمل وأتم .

أمَّا إنْ صحَّ أن يكون مقصود العباس بن مرداس من قوله :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

" أنَّها تشبع مِن لحوم القتلى فتسافد" [(٢)] فتكون فرحة تلك الضباع بالقتلى مضاعفة ، مرة للشبع ، وأخرى للسَّفاد .

---

(١) الحيوان للجاحظ ٦ / ٤٥٠

(٢) كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر (٢٣٥ ــ ٣١٥) ــ تح : د / فخر الدين قباوة ص ٧٣٨ ــ ط: مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٧٤ م .

هذا ، وقد يُفسَّر البيت على أنَّ الضباع مستكنة في العرائس ، وهي المأوى ، لشبعها واجتزائها بما تجد مِن القتلى عن الكدّ [١] فتكون صورته في الحُسن بإزاء صورة المُفَضَّل ، فيُحسب لصورة العباس تشعب معانيها واتِّساع [٢] القول فيها .

ثُمَّ إنَّك حين تتأمَّل قول العباس بن مرداس رضي الله عنه :

ولوْ ماتَ منهُمْ من جَرَحْنَا لأصبحَتْ ∴ ضباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرَائسا

تجده في أدني مراتب الفخر ؛ لأنَّ الشَّاعِر آثر للفخر أسلوب الشرط المصدر بـ (لو) التي تدلّ على امتناع حصول الجواب لامتناع حصول الشرط ، فلم يمت جَرحى الأعداء كَما كان يأمُل الشَّاعِر ويتمنَّى ، ومنْ ثَمَّ لم تجد تلك الضِّباع لها عرائسا .

****

(١) ينظر هامش : ديوان العباس بن مرداس السلمي ــ جمعه وحققه : د يحيى الجبوري ص ٩٤ ــ ط: مؤسسة الرسالة ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩١ م .

(٢) الاتساع : أن يقول الشَّاعِر بيتاً يتسع فيه التأويل ؛ فيأتي كل واحد بمعنى ، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى . ينظر : العمدة لابن رشيق ٢ / ٩٣ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الرابع : الإنصاف وأساليبه في تصوير شدة حزن النساء على القتلى .

مِن معاني الإنصاف التي حكاها المُفَضَّل النُّكْرِيّ ، ولم يكن لها مثيل في مُنصفة العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ : حكاية تعادُل الفريقين في الحُزن والترح على القتلى ، وقد أحسن الشَّاعِر توظيف الأسلوب الخبري الدال على التعادُل والتكافؤ كعادته لذلك .

ثمَّ إنَّ الشَّاعِر قد اعتمد على الكناية ــ وقد وُفِّق إلى حدّ بعيد ــ التي أبرزت صدق دعواه ؛ إذ أتت معانيه مصحوبة بالدَّليل الحِسيّ المُشاهَد ، كَما أرتك المعاني النفسية كالحُزن شاخصة وماثلة بين يديك .

يقول المُفَضَّل النُّكْرِيّ عند حكاية تعادُل نساء الفريقين : (الأصحاب والأعداء) في شدَّة البُكاء ، مُصوِّرا الإنصاف في أنبل أحواله :

فأبكينَا نساءَهُمُ وأبكَوا ∴ نساءً مَا يَسوغُ لهُنَّ رِيقُ
يُجاوبنَ النِياحَ بكُلِّ فَجْرٍ ∴ فقَدْ صَحِلَتْ مِنْ النَوحِ الحُلُوقُ (١)

فمعنى الإنصاف هنا وظَّف له المُفَضَّل ــ كعادته ــ الأُسلوب الخبري الذي يَحمل في تضاعيفه معنى التعادُل والتكافؤ ، فتراه في جانب الأصحاب يقول : (فأبكينَا نساءَهُمُ) ، وفي جانب الخصوم يقول : (وأبكَوا نساءً مَا يَسوغُ لهُنَّ رِيقُ) ، بل أرى المُفَضَّل قد بالغ في وصف حزن نساء قومه مِن خِلال الكناية عن صفة كثرة البكاء ، وبلوغ الحزن غايته ، في قوله :

---

(١) المُجاوَبةُ والتَّجاوبُ : التَّحاوُرُ ، وتَجاوَبَ القومُ : جاوَبَ بَعضُهم بَعْضاً .. وجابَ يَجُوبُ جَوْباً : قَطَعَ وخَرَقَ ، ورجُلٌ جَوَّابٌ مُعْتادٌ لذلك إذا كان قَطَّاعاً للبِلادِ سَيَّاراً فيها . ينظر : لسان العرب ــ مادة (جوب) .
صَحِل الرَّجُلُ بالكسر وصَحِلَ صوتُه يَصْحَل صَحَلاً فهو أَصْحَلُ وصَحِلٌ : بَحَّ ، ويقال في صوته صَحَلٌ أَي بُحُوحة والصَّحَلُ حِدَّة الصوت مع بَحَحٍ . ينظر : لسان العرب ــ مادة (صحل) .

(مَا يَسوغُ لهُنَّ رِيقُ) التي أبرزت دعواه مصحوبة بالدليل الحسي المُشاهد، وقبل الكناية آثر المُفَضَّل تنكير الموصوف : (وأبكوا نساء) ، وفي التنكير إفادة معنى التكثير كما هو باد .

بل ترى المُفَضَّل النُّكْرِيّ يستطرد في وصف بكاء نساء قومه قائلا :

يُجـــاوبنَ النِيـــاحَ بكُـــلِّ فَجْـــرٍ ∴ فقَـدْ صَـحِلَتْ مِـنْ النَـوحِ الحُلُـوقُ

وفي اختيار الفعل المضارع دلالة واضحة على تجدُّد النِّياح والبكـــاء ، وهذا يشي بشدَّة الحزن وامتداده ، واختيار الفعل (يجاوب) يشي باجتمـــاع هؤلاء النِّساء للنياح والبكاء ما يدلّ على شدَّة النياح وقوته ، فالنائحة تعين النائحة ، ثمَّ إنَّ دلالة العموم في قوله : (بكل فجر) ترشد إلى تمكُّن الحُزن في قلوب النائحات الباكيات ، وأنَّى لمصاب أنْ يسلى ، وقد استقبله النيـــاح كلّ صباح ، ثمَّ تأتي الكناية عن ارتفاع صوت النياح وكثرته في قوله : (فقَدْ صَحِلَتْ مِنْ النَوحِ الحُلُوقُ) لتؤكِّد على شدّة المصاب وبالغ مرارته ، مع ما في قوله : (من النوح) من الاحتراس المُبين أن النوح وحده وراء صـــحل حلوق النائحات الباكيات .

ويُمكن أن يكون وصف النساء في قول المُفَضَّل :

يُجـــاوبنَ النِيـــاحَ بكُـــلِّ فَجْـــرٍ ∴ فقَـدْ صَـحِلَتْ مِـنْ النَـوحِ الحُلُـوقُ

لعامة نساء الفريقين الأصحاب والخصوم على السَّواء ، وأنَّ الفعـــل : (يُجاوبن) يحكي مشاركة نساء الفريقين في رفع الصوت بالنيـــاح والبكـــاء الدالّ على شدة الحزن ، وأنَّه كلَّما سمعت نساء فريق منهن النياح جاوبتهـــا بالنياح نساء الفريق الآخر ، وفي هذا من المُبالغة بشأن ارتفـــاع أصـــوات النياح الدال على كمال الحُزن على القتلى ما لا يَخْفى .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ويُحْسب لصورة المُفَضَّل النُّكْرِيّ تتابُع الكنايات عن الصفة خاصة ، فقد أبرزت تلك الكنايات بالدليل المحسوس صدق دعواه ، وجسَّدت أكمل تجسيد حال النِّساء ، وأرتك المعاني النفسية كالحُزن ماثلة بين يديك ، بل يُمكن القول بأنَّ الشَّاعر آثر الكنايات هنا ليحدِّد تحديدا دقيقا مقدار الحزن الذي ألمّ بتلك النِّسوة ، يقول بدر الدين بن الناظم ــ رحمه الله ــ " ولا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نُكتة كالإيضاح ، أو بيان حال الموصوف ، أو مقدار حاله ، أو القصد إلى المدح أو الذم ، أو الاختصار ، أو الصِّيانة ، أو التعمية والإلغاز ، أو التعبير عن الصَّعب بالسَّهل ، أو عن الفاحش بالظاهر ، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن " (١) وفي الكنايات هنا مِن المبالغة بتصوير حُزن أولئك النِّسوة على القَتلى ما لا يَخْفَى .

****

وبعد :

...، ولا تَزَال المُنْصِفتان بِحَاجَة إلَى قِراءات أدَبِيَّة ، وبَلاغيَّة ، حَتَّى تُوَفَّى كُلّ مُنْصَفة مِنْهُما مَا تستحقُّه مِن الدَّرْس والتَأمُّل ... والله تعالى أعلم ..

****

(١) المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ــ تح : د / عبد الحميد هنداوي ص ١٨٥ ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ضمن منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة .

خَاتِمةُ البَحْثِ

الحمدُ لله وليُّ التوفيق ، أشكره ــ سُبْحَانه وتعَالى ــ علَى سابغ فضله ، وجليل إحسانه ، وتمام إنعامه ، وفِّقنا اللهمَّ لطاعتك ، وشُكْر نعمتك ، ويَسِّر لنا طريق مرضاتك ، واجعل أعمالنا كلّها خالصة لوجهك الكريم ، وتقبَّلها ، وأْجُرنا عليها ، وهيِّئ لنا مِنْ أمْرنا رَشدَا .

أمَّا بعْـــد

ففي هذه الأنفاس الأخيرة أذكر أهمّ ما توصَّلت إليه هذه الدِّراسة التي اتَّخذت مِن الحديث عن الإنصاف وأساليبه في قافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ وسينية العباس بن مرداس ميدانا لها ، وقد كانت الغاية المرجوّة مِن تلك الدِّراسة : الوقوف على تلك الأساليب البلاغية التي وظفها الشَّاعِران لتحقيق معانى الإنصاف ، وإبراز طريقة الشَّاعِرين الخاصة في توظيف تلك الأساليب ، وبيان مدى توفيق الشَّاعِرين في ذلك ، ومدى بلاغة تلك الأساليب فيما وظّفت له ، كما حاولت الدِّراسة تبيان رتب أساليب الإنصاف المختلفة في المنصفتين ليتبين أيُّها كان أكثر وفاء بالغرض ، وأقرب إلى تحقيق مقصود الشَّاعِر وغايته ، وذلك في عدَّة نقاط :

أولًا : يُعد شعر الإنصاف في الشعر الجاهلي شهادة على نُبل صاحبه ورقيّ مشاعره وسلامة قلبه ، واعترافا بعدله وفضله ، ولاسيَّما أنَّ الإنصاف قد خرج من رحم غرض وصف الحرب الذي كان يستدعي هجاء الخصوم والنَّيل منهم .

ثانيًا : يُحسب لقافية المُفَضَّل النُّكْرِيّ وسينية العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ أنهما من بواكير شعر الإنصاف في أدبنا العربي ، فإذا ذُكر الإنصاف ذُكرت قافيَّة النُّكْرِيّ وسينية ابن مِردَاس رضي الله عنه .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثالثًا : تَشابَهَ بناء القصيدتين إلى حدّ كبير ، فكلا الشَّاعِرين ابتدآ قصيدتيهما بالحديث عن لواعج الشَّوق إلى محبوبته التي رحلت ، وتركته يصارع أحزانه ، ويغالب شوقه وحنينه ، متذاكرا أُنسه بمجلسها والحديث معها ، ثمَّ كان الغرض الرَّئيس الذي استفرغ فيه الشَّاعِر طاقته الشعرية ، وهو وصف المعركة التي دارت بين قومه وأعدائهم ، مُفتخرا حينا ، ومُنصفا حينا آخر ، وقد بدا لي في مقدمة المنصفتين أنَّ المُفضَّل النُّكري كان أكثر وفاء بعهد الحُبّ من العباس بن مرداس ، ومِن ثَمَّ فقد كان أكثر إنْصافا لمحبوبته .

رابعا : كان للفخر بشجاعة النَّفس والأصحاب حُضُور لافت فِي المُنصفتين ، رغم شُهرة المنصفتين في باب الإنصاف ، ومرجع ذلك إلى طبيعة الشَّاعِر الجاهليّ الذي لا تزال للعصبيَّة القبلية في نفسه بقيَّة باقية ، ومِن ثمَّ يُمكِن القول بأنَّ الإنصاف الكامل في الأقوال والأفعال والعدل التامّ المطلق ، بعيد المنال عن طبيعة بني البشر طُرًّا ، اللهمَّ إلا إذا استثنينا أنبياء الله وأولياءه الصَّالحينَ .

خامسا : تنوَّعت الطُّرق التي وظّفت لتحقيق معنى الإنصاف في المنصفتين ، فكان أسلوب التعجب ، وأسلوب التفضيل ، وأسلوب الشرط ، والأسلوب الخبري ــ وهو أكثرها شيوعا ــ الدال على التكافؤ والتعادل والتوازن بين الأصحاب والأعداء ، والتشبيه والكناية أبرز الطرق التي جسَّدت الإنصاف وأوضحها .

وقد عاونت تلك الأساليب فنون بلاغية أخرى ، لم تكن رئيسة في الإنصاف ، فضلا عن دور الألفاظ البالغ في تجسيد معاني الإنصاف والتي

أحسن الشَّاعِران انتقاءها وتوظيفها ، وهو اختيار يُنبئ عن الفهم الدَّقيق لخصائص هذه الألفاظ ، ودلالات تلك التراكيب .

سادسًا : وظِّفت الصورة التشبيهية في باب الإنصاف في تبيان حال الأعداء ، وذلك لما يحمله التشبيه من مقدرة فائقة على تجلية المعاني في صورة أكثر وضوحا .

سابعًا : وظف المُفَضَّل النُّكْرِيّ الأسلوب الخبري أتمّ توظيف في تحقيق غرضه وهو تجسيد معانى الإنصاف في القصيدة عن طريق وضع الأسلوب الخبري في قالب التقابل أو التعادل بين الفريقين ، وشيوعه في القصيدة يبرهن على أنَّ الشَّاعِر عمد إليه ، ولم يكن عفو خاطره .

ثامنًا : أظهرت الدِّراسة حينا وجودا للإنصاف الشكلي ، فكان الشَّاعِر عند إبراز التكافؤ والتعادل يبني وصف أعدائه في شطر ، ووصف أصحابه في الشَّطر الآخر .

تاسعًا : الإنصاف في منصفة المُفَضَّل النُّكْرِيّ له سمت خاص به ، ومنحى مميز عن منحى العباس بن مرداس ، حيث ترى المُفَضَّل النُّكْرِيّ في قافيته يأخذ من وصف التكافؤ والتعادل بين الأصحاب والأعداء طريقا لتجسيد هذا المعنى .

أمَّا العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ فتراه يأخذ حينا مِن وصف القوم الأعداء بمقدرة وإحسان التصدِّي لفعال الأصحاب سبيلا للإنصاف ، فيقف بالإنصاف عند مقدرة الأعداء على رد الفعل وصد هجوم الأصحاب .

عاشرًا : بَذَّ المُفَضَّل النُّكْرِيّ صاحبه العباس بن مرداس في معاني الإنصاف التي أوردها في قافيته ، فمن تلك المعاني التي لم يكن لها مثيل في

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مُنصفة العباس بن مرداس ــ رضي الله عنه ــ : حكاية تكافؤ الفريقين في الغيظ والبغضاء ، وفي المشي نحو الآخر ، وفي كثرة القتلى ، وفي الحُــزن على القتلى من خلال تصويره تكافؤ نساء الفريقين في البكاء على قتلاهم .

كما أنَّ الإنصاف عند المُفَضَّل النُّكْرِيّ كان أدقّ وأتمّ وأكمل من إنصاف صاحبه العباس بن مرداس ، ويرجع ذلك في ظَنِّي إلى نفس المُفَضَّل ذاته ، وما حباه به الله من سجايا العدل والإنصاف .

حادي عشر : بدا لي في بعض الأحيان أنَّ إنصاف سينية العباس بــن مرداس للأعداء باهت ، لا تكاد تظهر له ملامح واضحة ، فهو بين إنصــاف موجز ، أو عارض يُشتم في ثنايا الفخر وبين تضــاعيفه ، رغــم شــهرة المنصفة البعيدة في هذا الباب ، فالناظر في القصيدة يرى الفخر والاحتفــاء بالنَّفس والأصحاب واضحينِ ، حتَّى لو قال قائل : إنَّ غرض السينية الأظهر والأبين هو الفخر بالنَّفس والأصحاب لم يُبْعِد كثيرا . والله تعالى أعلم .

****

هذا ، وتُوصي هذه الدِّراسة الباحثين بــ :

أولًا : تَعقُّب المعاني في مُختلف ألــوان البيــان العربــيّ ، ومحاولــة الوقوف على أساليبها البلاغيَّة المُختلفة ، إذ في ذلك إنماء للدرس البلاغي ، وتوسيع لميدان البحث فيه .

ثانيا : توجيه الأنظار ولفتها إلى تلك الأغراض الشعرية التي لم تُعهَــد مُدارستها في ميدان البلاغة خاصَّة ، كشعر الإنصاف ، وغيره .

ثالثًا : تعقُّب معاني الإنصاف بوجه عام في الشعر العربي عامَّة ، بما في ذلك شعر العصر الحديث ، والتفتيش عنهــا ، وعــدم الاقتصــار علــى

الإنصاف في ميدان القتال خاصَّة ، ومُحاولة الموازنة بين شعر الإنصاف في العصور المختلفة .

رابعًا : توسيع باب الموازنات الشِّعرية بين المعاني وأضدادها ، كالمُوازنَة بين شِعر المُنصفين أعداءهم ، وغير المنصفين ، لإبراز خُصُوصية كلِّ لون منها ، وفي ذلك إذكاء للدَّرس البلاغيّ ، كما هو معلوم . والله تعالى أعلم بالصواب .

****

هذا ، والله أسأل أنْ يجعل هذا العمل في ميزان الحَسنات ، وأنْ يتجاوز عن العثرات والهفوات ، إنَّه سميع مجيب .

جَزَى اللهُ خَيرًا مَن تَأمَّل صَنعَتِي ∴ وقابلَ مَا فِيها مِن السَّهْوِ بِالعَفوِ
وأصلحَ مَا أخطأتُ فيه بفضْلِهِ ∴ وفطنتِه ، أَسْتغفرُ الله مِن سَهْوِي(١)

****

(١) البيتان ذكرهما العلامة محمد الأمين بن عبد الله الهرري وهما لغيره . ينظر : حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري ٣٢ / ٤٩٧ ــ ط : دار طوق النجاة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ ه ــ ٢٠٠١ م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للزبيدي ــ ط : مؤسسة التاريخ العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .
- أدوات التشبيه ــ دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم ــ د محمود موسى حمدان ــ ط : مطبعة الأمانة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م .
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ــ تح : علي محمد البيجاوي ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ــ ط : دار المدني بجدة ــ من دون تاريخ .
- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ــ المؤلف : الخالديان : (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم) ــ تح : د السيد مجمد يوسف . ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة .
- الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ١٤١١ هـ ــ ١٩٩١ م .
- الأعلام ــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي ــ ط : دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة : الخامسة عشَرة ــ ٢٠٠٢ م
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ــ تحقيق : د / إحسان عباس ود / إبراهيم السعافين والأستاذ/بكر عباس ــ ط: دار صادر ــ بيروت ــ ط: أولى ــ ٢٠٠٢م.
- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ــ راجعه : هيثم خليفة الطعيمي ــ ط: المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ــ ١٤٣٢ ه ــ ٢٠١١ م .
- الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) للخطيب القزويني ــ وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ هـ ــ ٢٠٠٣ م .

- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ــ ط : مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ط : سابعة ــ ١٤١٨ ه ــ ١٩٩٨ م .
- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مُرتضى الزَّبِيدي ــ تحقيق : الترزي وحجازي والطحاوي والعزباوي ــ راجعه : عبد الستار أحمد فراج ــ ط : حكومة الكويت ــ ١٣٩٥ ه ــ ١٩٧٥ م .
- تاريخ الأدب العربي ــ الشعر الجاهلي ــ قضاياه ــ أغراضه ــ أعلامه ــ فنونه ــ للدكتور / غازي طليمات ، والأستاذ / عرفان الأشقر ــ ط : دار الإرشاد ــ حمص ــ سوريا ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ــ نقله إلى العربية د عبد الحليم النجار ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : خامسة .
- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ــ ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ لبنان ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٠١ ه ــ ١٩٨١ م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ــ تح : د / بشار عواد معروف و / عصام فارس ــ ط : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤١٥ ه ــ ١٩٩٤ م .
- جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي ــ تحقيق : ليفي بروفنثال ــ ط : دار المعارف ــ مصر .
- جمهرة اللغة لابن دريد ــ علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .
- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري ــ ط : دار طوق النجاة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢١ ه ــ ٢٠٠١ م .
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر لأبي علي بن المُظفر الحاتمي ــ تح : د /

جعفر الكتاني ــ ط : دار الرشيد للنشر ــ العراق ــ ١٩٧٩ م .

- الحماسة للبحتري ــ تح : د / محمد إبراهيم حور و/ أحمد محمد عبيد ــ ط : هيئة أبي ظبي للثقافة والتراث ــ المجمع الثقافي ــ أبو ظبي ــ الإمارات ــ ١٤٢٨ ه ــ ٢٠٠٧ م .
- الحيوان للجاحظ ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ــ ط : مصطفى البابي الحلبي ــ مصر ــ ط : ثانية ــ ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ــ عبد القادر بن عمر البغدادي ــ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ــ ط : مكتبة الخانجي ــ القاهرة . ط : رابعة ــ ١٤٢٠ ه ــ ٢٠٠٠ م .
- ديوان الأصمعيات اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب ــ تحقيق وشرح : أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثالثة .
- ديوان الأصمعيات ــ اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب ــ تحقيق وشرح : د : محمد نبيل طريفي ــ ط : دار صادر بيروت ــ ط : ثانية ــ ٢٠٠٥ م .
- ديوان العباس بن مرداس السلمي ــ جمعه وحققه : د / يحيى الجبوري ــ ط: مؤسسة الرسالة ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩١ م .
- دِيوان مُهلهِل بن ربيعة ــ شرح وتقديم : طلال حرب ــ ط : الدَّار العالمية ــ مِن دون تاريخ .
- الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للإمام أبي القاسم عبد الرحمن السهيلي ــ علق عليه ووضع حواشيه : مجدي بن منصور بن سيد الشوري ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ من دون تاريخ .
- شرح أبيات مغني اللبيب لعبد القادر بن عمر البغدادي ــ تح : عبد العزيز رباح و / أحمد يوسف دقاق ــ ط : دار المأمون للتراث ــ دمشق ــ ط : ثانية ــ ١٤٠٧ ه ــ ١٩٨٨ م .

- شرح أدب الكاتب لابن قتيبة ــ المؤلف :موهوب بن أحمد بن الجواليقى ــ تقديم : مصطفى صادق الرافعي ــ ط : دار الكتاب العربي ــ بيروت .
- شرح الأصمعيات ــ دكتور : سعدي ضناوي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .
- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ــ نشره : أحمد أمين وعبد السلام هارون ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١١ ه ــ ١٩٩١ م .
- شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ــ قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد ــ ط : دار الكتاب العربي ــ ط : أولى ــ ١٤١٢ ه ــ ١٩٩٢ م .
- شرح شافية ابن الحاجب للشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي ــ تح : محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ــ ط : المكتبة العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٢ ه ــ ١٩٨٢ م .
- صورة الجماعة وبلاغة الخطاب في قصيدة المُفَضَّل النُّكْرِيّ د / عبد الحميد محمود المعيني ــ مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ــ العلوم الإنسانية والاجتماعية ــ الأردن ــ المجلد الخامس عشر ــ العدد الثامن ــ ٢٠٠٠ م .
- طبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلام الجمحي ــ شرحه أبو فهر محمود محمد ــ ط : دار المدني بجدة .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ــ ط : دار الجيل ــ بيروت ــ ط : خامسة ــ ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١ م .
- العين مرتبا على حروف المعجم للخليل بن أحمد الفراهيدي ــ تح : د / عبد الحميد هنداوي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ ه ــ ٢٠٠٣ م .
- فقهاللغةوأسرارالعربية لأبيمنصور الثعالبيــشرحهوقدم له: د/ياسين الأيوبي ــ ط : المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ــ ط: ثانية ــ ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- القصائد المنصفات ــ دراسة موضوعية فنية ــ د / فتحي عبد المحسن محمد ــ مجلة كلية التربية ــ جامعة عين شمس ــ مصر ــ المجلد السابع ــ العدد الثالث .
- كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر (٢٣٥ ــ ٣١٥) ــ تح : د / فخر الدين قباوة ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٧٤ م .
- الكليات ــ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ــ أعده للطبع ووضع فهارسه د / عدنان درويش و محمد المصري ــ ط : مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان ــ ط: ثانية ــ ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .
- لباب البيان د : محمد حسن شرشر ــ ط : دار الطباعة المحمدية ــ ط : ثانية ــ ١٩٨٠ م .
- لسان العرب لابن منظور الإفريقي المصري ــ ط : دار صادر ــ بيروت .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعِر لضياء الدين بن الأثير ــ قدمه وعلق عليه : د / أحمد الحوفي ، و د/ بدوي بطانة ــ ط : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ــ الفجالة ــ القاهرة ــ ط : ثانية ــ من دون تاريخ .
- مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني ــ قدم له وعلق عليه : نعيم حسين زرزور ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : ثالثة ــ ٢٠١٠ م .
- المحيط في اللغة للصاحب إسماعيل بن عباد ــ تح : الشيخ محمد حسن آل ياسين ــ ط : عالم الكتب ــ بيروت ــ ١٤١٤ ه ــ ١٩٩٤ م .
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ــ عبد الله الطيب ــ ط : ثالثة ــ الكويت ــ ١٤٠٩ ه ــ ١٩٨٩ م .
- المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ــ تح : د / عبد الحميد هنداوي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ضمن منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة .
- معجم البلدان لياقوت الحموي ــ ط: دار صادر ــ بيروت ــ ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.

- معجم الشعراء للمَرْزُباني ــ تح : د / فاروق سليم ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤٢٥ ه ــ ٢٠٠٥ م .
- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ــ معجم ببليوغرافي يعرف بالشعراء ومراجع دراستهم ــ د عفيف عبد الرحمن ــ ط : دار المناهل ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٤١٧ ه ــ ١٩٩٦ م .
- المعجم الوسيط ــ إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار ط : مكتبة الشروق الدولية ــ ط : رابعة ــ ١٤٢٥ه ــ ٢٠٠٤ م .
- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ــ تح : صفوان عدنان داوودي ــ ط : دار القلم ــ دمشق ــ والدار الشامية ــ بيروت ــ ط : رابعة ــ ١٤٣٠ ه ــ ٢٠٠٩ م .
- ملامح السرد القصصي في الأصمعيات ــ دراسة وصفية تحليلية ــ د محمد زروق الحسن علي (رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية بجامعة أد درمان الإسلامية)
- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ــ أمين الخولي . ط: دار المعرفة ــ القاهرة ــ ط : أولى ــ ١٩٦١ م .
- منتهى الطلب من أشعار العرب ــ جمع محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ــ تحقيق وشرح : د / محمد نبيل طريفي ــ ط : دار صادر ــ بيروت ــ ط : أولى ــ ١٩٩٩ م .
- موسوعة شعراء العصر الجاهلي ــ عبد عون الروضان ــ ط : دار أسامة للنشر والتوزيع ــ الأردن ــ عمان ــ ط : أولى ــ ٢٠٠١ م .
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ــ المؤلف : عدد من المختصين بإشراف الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد ــ ط : دار الوسيلة للنشر والتوزيع ــ جدة ــ ط : رابعة .

****

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
١	ملخص	٢٢١١
٢	Abstract	٢٢١٣
٣	فَاتِـحَةُ البَحْثِ	٢٢١٥
٤	التمهيد	٢٢٢٠
٥	الأول : شعر الإنصَاف ، وخصائصه في الشِّعر الجَاهليّ .	٢٢٢١
٦	الثاني : المُفَضَّل النُّكريّ ، ومُنْصِفَته : أَلمْ ترَ أنَّ جيرتَنَا استقَلُّوا .	٢٢٢٥
٧	الثالث : العباس بن مرداس ، ومُنْصِفَته : لِأَسْمَاءَ رَسْمٌ أَصْبَحَ اليَوْمَ دَارِسَا .	٢٢٣٢
٨	المبحث الأول: الإنصاف وأساليبه في وصف حال الأعداء في لحظات اللقاء الأولى .	٢٢٣٩
٩	المبحث الثاني: الإنصاف وأساليبه في تصوير مقدرة الأعداء على القتل والرَّدع حين المواجهة .	٢٢٦٧
١٠	المبحث الثالث: الإنصاف وأساليبه في تصوير إشباع السِّباع مِن جُثث القتلى.	٢٢٨٦
١١	المبحث الرابع: الإنصاف وأساليبه في تصوير شدَّة حزن النِّساء على القتلى.	٢٢٩٢
١٢	خَاتِمةُ البَحْثِ	٢٢٩٥
١٣	فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم	٢٣٠٠
١٤	فهرس الموضوعات	٢٣٠٦